

الفصل الرابع

طوائف من الشعر

١

شعراء الغزل

يكثر شعر الحب في الأدب العربي منذ الجاهلية إلى اليوم كثرة مفرطة، وحتى في إغراض الشعر الأخرى مديحا وغير مديح يقدم الشعراء لقصائدهم فيها أبيات من الغزل أو النسيب جذبا للأسماع، ولذلك لا نغلو إذا قلنا أن النسيب والغزل والحب يكاد يكون الغرض الأساسي للشعر العربي، وهو أمر طبيعي لأنه يتناول عاطفة الحب الإنساني الخالدة بجميع أحاسيسها ومشاعرها وانفعالاتها وانعكاساتها على حياة الشاعر المحب أو العاشق منذ تستهويه امرأة، فيقع فريسة لحبها، وتملاً قلبه وجداً وشوقاً إلى رؤيتها، وقد تعرف منه هذا الحب فتلقاه أو تنظر إليه نظرة أو تومئ إليه إيماءة فيزداد ولعباها وغراما، وقد تتدل عليه وتمتتع وقد تتأى عنه وتهجره فتضطرم بين جوانحه نار شوق لا تخمد، وعبثاً يتذلل لها ويستعطف ويتضرع، ومع ذلك لا يذوى الأمل في نفسه بلقائها أبداً، فهو دائماً مؤمل في اللقاء بعد الهجران وعلى الأقل في الرؤية بعد الحرمان. وبلغ الحب ببعض الشعراء قديماً حد الجنون، واسم قيس مجنون ليلي يشيع على كل لسان، قد ظل يغني باسمها وعيناها مصوبتان إلى خيالها، فهو لا يرى في ليله ولا في نهاره سواها، إذ تشغل من حوله كل وقت وكل مكان وهو يسبح في البوادي معاشراً آرامها، إذ هجر حيّتها، بل هجر عالم الإنسان، إنه لا يعرف سوى عالمها، فهو العالم الفسيح الذي لا يزال بصره فيه شاخصاً إليها. أما عالم قومه أو بعبارة أخرى عالم الإنسان فما أضيق ساحاته، وإنه ليفر منه منظوياً على نفسه حالماً بليلى وعالمها الساحر خالعا الوهم على الحقيقة ذاهلاً عن كل ما حوله ذهول المجانين، ولذلك سماه القدماء مجنون ليلي. وقلة فقط هم الذين بلغ بهم الحب هذا المبلغ المغرق في الخيال، ومع ذلك فكل محب يشعر كأن صاحبه فوق مستوى كل من حولها من الفتيات والنساء، وكأنما تحيط بها هالة سحرية، وبذلك تستحيل في خيال الشاعر المحب لها أو

العاشق إلى كائن شعري ساحر. وقد يفيق المحب من حبه وسحره، وقد يظل رهينا به لا ينفك عنه أبدا ولا يفيق بتاتا.

ونستطيع أن نلاحظ ذلك على شاعر شامي من شعراء العصر العباسي الأول هو ديك الجن الحمصي، فقد ظل يتغني بمحبوته "ورد" طوال حياته حتى بعد أن وسوس له شيطان الغيرة الحمقاء أن يحرقها ظلما وبهتاناً، فقد ظل يبكيها بكاء قلب مزقه الندم والألم. وظل البحتري مثله يتغزل بصاحبته "علوة الحلبية" حتى شيخوخته على نح ما صرنا ذلك في كتابنا "العصر العباسي الثاني". ومن المؤكد أن شعراء الغزل العربي - على مر الأزمنة - أتاحوا بحبهم وأشعارهم لغير امرأة أن تتال حضا من الشهرة قليلا أو كثيرا. ولولا ديك الجن ما اشتهرت "ورد" ولا عرفها أحد ولولا البحتري ما اشتهرت علوة ولا حفل بها أحد، وقد ظلت دارها قائمة معروفة بحلب حتى زمن ياقوت صاحب معجم البلدان في القرن السابع الهجري. على أن بين الشعراء من لم يقتصر في غزله على واحدة بعينها فتغزل بكثيرات وقليل منهم من نشعر عنده بلوعة حقيقية. ومنذ الجاهلية يتنوع الغزل، ففيه العفيف النقي الذي أضاف إليه الإسلام بمثاليته عفة على عفة وطهرا على طهر، والشاعر المحب يصور فيه وجدده وهيامه وكلفه بصاحبته كلفا شديدا وعذابه في هذا الكلف عذابا متصلا. وفي الغزل بجانب ذلك الغزل الحسي الذي يصور جمال المرأة ومفاتها تصوير ماديا تطغى فيه الغرائز وتجمع العواطف. وظل هذان النوعان: الملائكي الطاهر والمادي الصريح يتقابلان في الغزل العربي طوال الحقب الماضية. والحديث عن الغزل وشعر الحب عند شعرائنا يطول فلندع ذلك إلى أمثلة مختلفة من غزل هذا العصر بديار الشام، وأول ما نشوق من ذلك قول كشاجم في صاحبه له^(١):

السحر في ألاحظها الفاتكة	والروح من إعراضها هالكة
والقهوة الصهباء من ريقها	والمسك من اصداغها الحالكة
من لم ير الدر وتأليفه	في سلكه فليرها ضاحكة
قد كتب الحسنُ على خدها	طل دم أنتِ له سافكه

(١) ديوان كشاجم (طبع المطبعة الأنسية ببيروت) ص ١٣٩.

والأبيات تخلو من العاطفة المشبوبة، إذ ليس فيها حرارة، إنما فيها تشبيهات واستعارات محفوظة، فريق صاحبه خمر والشعر على أصداغها وأسنانها درّ، وربما كانت الصورة في البيت الأخير بديعة، إذ تخيل كأن حمرة خديها الساطعة دم سفكته، وهي مبالغة في الخيال والتصور. ولأبي فراس الحمداني أبيات فيها غير قليل من نشوة الحب وحرارته، وإذ يقول (١):

سكرتُ من لحظة لا من مدامته ومال بالنوم عن عيني تمايله
وما السلافُ دهنتي بل سوافه ولا الشمول ازدهنتي بل شمائله
ألوي بلبي أصداغ لوين له وغال قلبي ما تحوي غلائله

وهو يقول إنه انتشى من لحظ صاحبه وعينيها الفاتنتين لا من الخمر الحقيقية، ويقول ليست السلافة أو الخمر هي التي دهته بل صفحتا جيدها البديع، وكذلك ليست الخمر أو الشمول هي التي استخفّته بل خصالها الحلوة وما أروع أصداغ شعرها المنسدلة على خديها فقد ألوت وذهبت بلبه، وما أجمل كل ما تشتمل عليه غلائلها وثيابها مما سرق منه قلبه. وله مقطوعة وصف فيها ليلة من ليالي حبه على طريقة عمر بن أبي ربيعة (٢)، إذ يقول إنهما ظلا يقتطفان زهرات الحب إلى أن بدا ضوء الصباح فتفرقا. ولابن زمرك موشحات وأشعار على هذا الغرار، يحاكي فيها أبا فراس وابن أبي ربيعة، وظن بعض المستشرقين أنها من تجديده، وهي قديمة في الشعر العربي. ولابن سنان الخفاجي (٣):

أترى طيفكم لما سرى أخذ النوم وأعطى السهرا
أم ذهلنا وتمادى ليلنا فتوهمنا العشاء السحرا
يا عيوننا بالحمى راقدة حرم الله عليكم الكرى
سل فروع البان عن قلبي فقد وهم البارقُ فيما ذكرا

(١) ديوان أبي فراس الحمداني ٣٠٢/٢.

(٢) ديوان أبي فراس ٣٩/٢.

(٣) ديوان ابن سنان الخفاجي (طبع المطبعة الأنسية) ص ٣٩.

وليس في الأبيات لهفة ولا لوعة، ودعاؤه على صاحبتة أو صواحبه- في البيت الثالث- أن لا يدقن النوم دعاء ناب على ذوق المحبين. ولم يكن من أصحاب الحب. وإنما هي أبيات في الغزل أو النسب كان يقدم بها لقصائده حكاية واقتداء بالشعراء قبله. ولابن الخياط أشعار غزلية كثيرة يقدم بها لمدائحه نحس فيها لوعة المحب وحرقة فؤاده من مثل قوله^(١):

خُذَا من صبا نجد أمانا لقلبه	فقد كاد رياها يطير بلبه
تذكر والذكرى تشوق وذو الهوى	يتوقُ ومن يعلق به الحب يُصبه
غرام على يأس الهوى ورجائه	وشوق على بعد المزار وقربه
إذا خطرت من جانب الرمل نفحة	تضمن منها داءه دون صحبه
أغار إذا أنستُ في الحي أنه	حذاراً وخوفاً أن تكون لحيه

فحب صاحبتة النجدية استأثر بقلبه حتى ليطلب له الأمان من صبا نجد مخافة عليه أن يطير شعاعاً، وأنه ليذكرها ليل نهار وتُصبيه، ويبأس لهجرانها ولأسنة أهلها وسيوفهم كما يقول في القصيدة. ويظل يرجو لقاءها وأنه ليتسم في الصبا المقبلة من ديارها نفحة من عطرها تحمل له نفس الداء، داء الحب وعذابه. ويبالغ في وصف غيرته عليها، حتى ليخشى أن تكون كل أنه يسمعها في الحي من محب لها محموم بحبها ودائه العصال. ولمعاصرة الغزي المتوفى سنة ٥٢٤ للهجرة^(٢):

إشارة منك تغنيني وأحسنُ ما	رُد السلام غداة البين بالعم (٣)
حتى إذا طاح عنها المرط من دهش	وانحل بالضم سلكُ العقد في الظلم (٤)
تبسمت فأضاء الليلُ فالتقطتُ	حبات منتثر في ضوء منتظم

وهو تكفيه الإيماءة من بعيد والإشارة بالبنان الجميل الأحمر حمرة زهر العنم، ويقول إنه سقط عنها المرط أو الإزار وانحل سلك العقد الملتف حول جيدها، وتبسمت

(١) ديوان ابن الخياط ص ١٧٠.

(٢) ابن خلكان ٥٩/١

(٣) العنم: نبات أزهاره قرمزية

(٤) المرط: كساء من حرير أو صوف تتلفع به المرأة

فأضاء ظلام الليل وأخذت تلتقط حبات العقد المتناثرة في ضوء اللؤلؤ المنتظم في ثغرها
البراق الفاتن.

ودخل القيسراني مدينة أنطاكية في أثناء حكم الصليبيين لها سنة ٥٤٠ لحاجة
عرضت له، وكان في الثانية والستين من عمره، فنظم مقطعات يشبب فيها بإفرنجيات،
أشهرهن مغنية تسمى ماريًا، خلبت لبه، وله فيها غزليات كثيرة، ومن بديع غزله قوله
(١):

عنائف إلا عن معاقرة الهوى	ضعائف إلا في مغالبة الصب
ولما دنا التوديع قلت لصاحبي	حنانيك سر بي عن ملاحظة السرب
تقضي زمني بين بينٍ وهجرة	فحتام لا يصحو فؤادي من حب
وأهوى الذي يهوى له البدر ساجدًا	أست ترى في وجهه أثر الترب

والصورة في البيت الأخير رائعة فقد جعل كلفه البدر من أثر الترب العالق بجبهته
لتوالي سجوده لصاحبه ولجمالها الساحر. ويقول إن زمانه تقضى في حرمان متلاحق
من البعاد والهجرة المتصلة. ولحماد الخراط المتوفى سنة ٥٦٥ قوله (٢):

ألا هل لماضي العيش عندك مرجع	وهل فيه بعد اليأس للصب مطمع
لقد أولعت بالصدّ عني وإنني	لفرقتها، ما عشتُ، بالوجد مولع
أضاحكُ حُسادي فيغلبنى البكا	وأكتم عوادي وإنني لموجع
إذا خطرْتُ من ذكرها لي خطرة	تكاد لها أنباط قلبي تقطع

وهو يائس من اللقاء ومع ذلك لا يزال حبل الرجاء ممدودًا، مع لوعها بالصد عنه
والإعراض ومع تعلقه بها ووجدته وجدا ملتا عا. وبضاحك حساده تمويهها ويغلبه البكاء
ويكاتم زواره وهو موجع القلب والحشا، حتى إذا ذكر اسمها عفوا أحس كأن نياط فؤاده

(١) الخريدة (قسم الشام) ١٢٤/١.

(٢) الخريدة ١٣٧/٢

وعلائقه تتقطع تحسرا ولوعة. وقد أنشد له العماد غزلا كثيراً. ويشكو ابن النقار كاتب الإنشاء الدمشقي المتوفى سنة ٥٩٢ شكوى مرة من صاحبه قائلاً^(١):

من منصفي من ظالم متعنت يزداد ظلما كلما حكمته
ملكته روجي ليحفظ ملكه فأضاعني وأضاع ما ملكته

وهي تظلمه ولا ترحمه ولا تعطف عليه أي ضعف، وويل له لقد ملكها روجه لتحفظها وتصونها وتقوم بحقوقها فإذا هي تضيعها وتضيع صاحبها إذ أصبح خواء بلا روح، فما أشقاه: ويقول فتیان الشاغوري متغزلاً^(٢).

ومهفهفٍ بلغ المنى بصفاته حركاتُ غصن البان من حركاته
والشمس تخجل من ضياء جبينه فكأن يوسف حاز بعض صفاته
أضحى الجمال بأسره في أسره فكأن يوسف حاز بعض صفاته
لا تطمعن يا عاذلي في سلوتي عنه فما أسلوه، ولا وحياته

وهو يصور صاحبه مهفهفة أو بعبارة أخرى ضامرة دقيقة الخصر بلغت كل ما تتمناه المرأة من حسن وجمال، ويقول إن غصن البان الذي يמיד ملاحه حركته مشتقة من حركاتها، ويجعل الشمس تصفر خجلاً من ضياء جبينها، بينما يغار الجنار أو بعبارة أخرى ورد الرمان وزهرة الأحمر من وجناتها المشربة بالحمرة القانية، ويجعلها تحوز الجمال بأسره، حتى لكأن يوسف عليه السلام إنما حاز منه أطرافاً! ويتوجه إلى عاذله باللوم، فلن يكف عن حبه ولن يسلو صاحبه أبداً.

ويقول بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي المتوفى سنة ٦٨٠ للهجرة^(٣):

وتنبهت ذات الجناح بسحرة بالواديين فنبهت أشواقي
ورفاء قد أخذت فنون الحزن عن يعقوب والألحان عن إسحاق^(٤)

(١) الخريدة ٣١٥/١.

(٢) الديوان ص ٦٤.

(٣) الخزائن ص ٣٢٦.

(٤) يعقوب هو النبي يعقوب وبكاؤه على ابنه يوسف حتى ابيضت عينه من الحزن معروف.. وإسحاق هو إسحاق الموصلي أشهر المغنين والملحنين في العصر العباسي.

أني تُباريني جوى وصبابة وكآبة وأسى وفيض مآقي
وأنا الذي أُملي الجوى من خاطري وهي التي تُملى من الأوراق

وهو يقارن بين جواه وحبه وأساه ودموعه وبين جوي الحمامة الورقاء وصبابتها
لأليفها وحزنها الدفين، ويقول إنه يملي من خاطره حرقتة ولوعته، بينما هي تملى من
أوراق الشجر وتروى عنه ذلك الوجد. ويقول المحار الحلبي المتوفى سنة ٧١١ للهجرة
(١):

ما بث شكواه لولا مسه الألم ولا تأوه لولا شفه السقم
ولا توهم أن الدمع مُهجتة أذابها الشوق حتى سال وهو دم
يُبدى التجلد والأجفان تفضحه كالبرق تبكى الغواذي وهو يبتسم
يمسي ويصبح لا صير ولا جلد ولا قرار ولا طيف ولا حلم

والمحار يقول إنه لم يَشْكُ إلا بعد أن برح به الأمل ولا أن إلا بعد أن شفه السقم
وما كان ليتوهم أن نار الهوى أذبت مهجته حتى سال الدمع دماً قانياً. وأمسى ويصبح
وقد عزه الصبر والتجلد وتملكه قلق لا حدّ له، وضاع منه كل شئ حتى الطيف في
المنام، وحتى الأحلام إذ لا يزال مسهداً لا ينام.

ونمضي إلى زمن العثمانيين ونجد الغزل وشعر الحلب على كل لسان من مثل
قول فتح الله بن النحاس المتوفى سنة ١٠٥٢ للهجرة (٢):

طرقت طروق الطيف وهنا ميالة الأعطاف حُسنا
مصقولة الخدين مثل السيف الحاظاً ومنتا
في حلة من جنس ما يكسو الربيع الغصن دكنا
الدل ينبت من مساحب ذيلها والحسن يجني
لو خاطبت وثنا لد ن مع الجمود لها وأنا

(١) فوات الوفيات ٢/٢٢١.

(٢) نفحة الريحانة (طبعة الحلبي) ٢/٥٢٧.

وليس في القطعة لوعة، بل هو يصف جمال صاحبتة ودلها وحسنها، ويقول: لو
خاطبت وثنا من الأحجار لحنّ لها وأنّ انينا لا ينقطع. ولم يكن فتح الله بن النحاس من
شعراء الحب والوجد مثل محمد الحشري المتوفى سنة ١٠٩٢ للهجرة القائل:

من عذيري في حب طفل لعوب	عوده سفك الدماء فحلا له
كلما صد عن سواي دلالة	صد عني تبرماً وملا له
لست أنسى يوم الفراق وقد أدرك	من شملنا النوى آماله
غصب البين من يدي كل قد	سرق الغصن لينه واعتداله
مر نشوان من جوى يتثنى	ثقل الورد غصنه فاماله

والقطعة تزخر بتصاوير بديعة، تصور خصب الخيال عند الحشري، فقد عودوا
صاحبتة الطفلة الناعمة الرقيقة سفك الدماء فحلالها أن تديم هذا السفك. ويزعم أن
الغصن سرق لينه واعتداله من قد صاحبتة وقوامها اللين المشوق وينفذ إلى صورة
طريفة، فصاحبتة تتثنى لنقل الورد المتوهج على حدودها الفاتكة. وحري بنا أن نترجم
في إجمال لبعض الشعراء العصر الغزليين.

عبد المحسن الصوري^(١)

هو عبد المحسن بن محمد الصوري، أحد الشعراء المجيدين المبدعين، وفيه يقول
الثعالبي: "أحد المحسنين الفضلاء المجيدين الأديباء، وشعره بديع الألفاظ حسن المعاني
رائق الكلام، مليح النظام، من محاسن أهل الشام" ويقول ابن خلكان: "له ديوان شعر
أحسن فيه كل الإحسان. توفي سنة ٤١٩ وعمره ثمانون سنة أو أكثر"، وكان ابن
حيوس الذي ترجمنا له بين شعراء الشيعة مغرى بشعره، وكان يفضل على أبي تمام
والبحتري والمتنبي، ويروى أنه مرّ في طريقه إلى حلب بشاعر المعرّة بال الشام بل
العالم العربي لزمه: أبي العلاء، وجرى بينهما حدث في الشعر والشعراء وعاب أبو
العلاء عبد المحسن الصوري بقصر أشعره وأنه لا ينظم في الغالب إلا مقطّعات فقال
له ابن حيوس: هو أشعر من طويلك يقصد المتنبي، فمدّ إليه أبو العلاء يده وقبض

(١) انظر في ترجمة عبد المحسن الصوري وأشعاره اليتيمة ٢٩٦/١ وتنمة اليتيمة ص ٣٥ وابن خلكان ٢٣٢/٣ وعبر
الذهبي ١٣١/٣ و النجوم الزاهرة ٢٦٩/٤ و امرأة الجنان ٣٤/٣ والشذرات ٢١١/٣ وديوانه مفقود.

على أعلى ثوبه قائلاً: الأمراء لا يناظرون، يعني أنه لا يقارن بالمتنبي. وكان أبو العلاء معجباً بالمتنبي إعجاباً شديداً حتى سمي شرحه لديوانه باسم معجز أحمد. على أن قصر أشعار عبد المحسن الصوري لا يدفع أنه مجيد في قصاره إجادة رائعة. وهو فيها يقترب في فنه من أبي تمام في دقائق تصاويره وأخيلته.

ولعل ذلك ما جعل ابن خفاجة الأندلسي يعجب بأشعاره حتى ليقرّنه في مقدمة ديوانه بالشريف الرضي ومهيار قائلاً: إنه تملكته في شبابه محاسن أشعارهم الرائعة الرائقة، وألفاظهم الشفافة الشائقة. ويتوقف مراراً في ديوانه ليدلنا على أن عبد المحسن الصوري ألهمه هذه المقطوعة أو القصيدة أو تلك، وهو فيها جميعاً يتغزل غزلاً رقيقاً ممتزجاً بالطبيعة وجمالها الهاجع في الكون، وكأنه يضع أيدينا على خصائص عبد المحسن في غزله، فهو فيه يمزج بين المحبوب وعناصر الطبيعة مزجاً فيه كثير من الطرافة في التصوير كقوله:

بالذي ألهم تعذيب	بي ثناياك العذابا
والذي ألبس خديك	من الورد نقابا
والذي صير حظي	منك هجرا واجتتابا
يا غزالا صاد باللحظ	فؤادي فاصابا
ما الذي قالت عينا	ك لقلبي فأجابا

فهو يصل بين رُضاب الثنايا في ثغر صاحبتة وبين المياة العذبة الحلوة، ويجعل الحمرة على وجنتيها ورداً تنتقب به. وهو بعد في التصوير. ويجعلها غزالاً من نوع غريب، فهي غزال لا يُصاد، بل يصيد بشباك لحظة، وإنه ليخلب القلوب فتاليه طائفة مستجيبة.

وقد استلهم ابن خفاجة هذا الجانب في غزل عبد المحسن الصوري واستضاء به، كما استضاء واستلهم في أشعار أخرى له جانباً ثانياً في غزل عبد المحسن، ونقصد جانب الرقة والدمائة والنعومة على نحو ما نجد في قوله:

أترى بتأر أم بدين علقْتُ محاسنها بعيني

ما في المهند والرديني	في لحظها وقوامها
خليط نار الوجنتين	وبوجهها ماء الشباب
تر خصلة من خصلتين	بكرت عليّ وقالت أخ
فليس عندي غير ذين	إما الصدود أو الفراق
منهلة كالمرزمين ^(١)	فأجبتها ومدامعي
أو فراقك حان حيني	لا تفعلي إن حان صدك
فمضت مسارعة لبيني	وكأنما قلتُ اذهبي

والأبيات تسيل رقة وعذوبة، مما يجعلها تطير من الفم بخفة طيرانا لرشاقتها ونعومتها، والألفاظ مختارة اختيارا دقيقا، وبالمثل موسيقاها الخفيفة المقتطفة من وزن الكامل المجزوء. وكان يعرف كيف يختار موسيقاه ولحونها وأنغامها، وكيف يختار لها الألفاظ التي تمكن لها بحلاوتها وعذوبتها في الأذان، بل في القلوب والأفئدة. ويقول في صُدغ شعر مرسل بين أذن صاحبتة ووجنتيها وقد توقف مائلا منحنيا:

جنى ما جنى وانصرف	وأنكر ثم اعترف
سلوا صدغة لم جرى	ولما جرى لم وقف
وكان على أنه	يجوز المدى فانعطف

وهو تصوير بديع لهذا الصدغ وانعطافه ذات اليمين أو ذات اليسار دون استرساله، وكأنه لجماله وحسنه كان ينتظر أن لا ينعطف، وقد بث فيه حركة طريفة فهو يجري ثم يقف، وهو يسترسل ثم ينعطف. وكان الشعراء يغارون على صواحبهم، ويذكرون ذلك في أشعارهم، أما عبد المحسن فيقول:

تعلقته سكران من خمرة الصبا	به غفلة عن لوعتي ولهبي
وشاركني في حبة كل أعيد	يشاركني في مهجتي بنصيب
فلا تلزموني غيرة ما عرفتها	فإن حبيب من أحب حبيبي

(١) المرزمان: نوءان شديدا المطر.

وهو في ذلك رقيق منتهى الرقة، فهو لا يغار ممن يحب حبيبته ولا يكرهه أو يمقتة، بل أعجب العجب أنه يحبه، وهي مبالغة مفرطة في الرقة ورهافة الشعور.

obeyikahna.com

ابن (١) منير

هو أحمد بن منير الطربلسي، ولد في طرابلس سنة ٤٧٣ لأب كان ينشد الأشعار ويغني في أسواقها، وأخذ ابنه في نشأته بالتعليم فحفظ مثل لداته القرآن الكريم، وتعلم اللغة والأدب وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة، وقدم دمشق وسكنها. ويقول العماد الأصبهاني كان شيعيا غالبا، ويقول ابن خلكان: "كان رافضيا". وكان هجاء خبيث اللسان، وكثر هجاؤه فسجنه بوري بن طغتكين صاحب دمشق (٥٢٢ - ٥٢٥ هـ). وعزم على قطع لسانه، وشفع فيه الحاجب يوسف بن فيروز، فأطلقه بوري على أن يغادر دمشق، ورجع إليها بعد وفاته. غير أن حكامها بعد بوري ظلوا ينفونه مرارا، مما جعله ينزل في بلدان شامية متعددة وخاصة حماة وشيزر ومدح كثيرين من حكام البلدان الشامية وخاصة أمراء شيزر، وكان في أثناء مقامة بتلك المدينة يتردد على حلب. وتغنى طويلا بانتصارات عماد الدين زنكي على الصليبيين في بادين وغيرها من ساحات الحرب في الشام. وجلجل بصوته حين فتح مدينة الرها وأزال منها إلى غير رجعة إحدى الممالك التي أسسها حملة الصليب. وأقام بان منير حينئذ بحلب، ونشأت بينه وبين ابن القيسراني - بسبب المنافسة - معركة هجاء حامية الوطيس. وتوثقت العلاقة بينه وبين نور الدين بعد وفاة أبيه زنكي، وأشاد ببطولته وانتصاراته على حملة الصليب، وكان يصحبه في غزواته، واتخذ نور الدين سفيرا إلى حاكم دمشق في بعض المهام، ولم يلبث أن توفي بحلب سنة ٥٤٨ هـ.

وتناول ابن منير في شعره أغراضا مختلفة في مقدمتها المديح، ومرّ بنا - في غير هذا الموضوع حديث عن مديحه لعماد الدين زنكي وابنه نور الدين في انتصاراتهما الرائعة على حملة الصليب، ويُشيد العماد الأصبهاني بشعره وروعته. وكان يكنى أبا الحسن ويلقب المذهب وقال في وصف شعره أحد معاصريه: شعره ككنيته حسنٌ ونظمه كلقبه مهذبٌ، أرق من الماء الزلال، وأدق من السحر الحلال، وأطيب من نيل الأمنية، وأعذب من الأمان من المنية. وله هجاء كثير. وكان يجيد الغزل وشعر الحب إلى أبعد حد، وفي رأينا أن مرجع ذلك إلى حزن تطوي عليه نفوس الشيعة جميعا منذ مقتل

(١) انظر في ابن منير وشعره الخريدة (قسم الشام) ٧٦/١ وابن خلكان ١٥٦/١ وابن القلانسي ٣٢٢ و النجوم الزاهرة ٢٩٩/٥ وشذرات الذهب ١٦٤/٤.

الحسين، وهو حزن صفّي مشاعره ورقق أحاسيسه ومأله بوجد متقد لا تخمد ناره، ومن رائع غزله قوله:

من ركب البدر في صدر الرديني	وموه السحر في حد اليماني
وأَنْزل النير الأعلى إلى فلك	مداره في الكساء الخسرواني
طرف رنا أم قراب سل صارمه	وأغيد ماس أم أعطاف خطي
أذلني بعد عز والهوى أبدا	يستعبد الليث للظبي الكناسي (١)
أما وذائب مسك في ذوائبه	على أعالي القضيب الخيزرانيّ
وما يُجن عقيقي الشفاه من الـ	ريق الرحيقي والثغر الجمانيّ
أرى عليّ بشتى من محاسنه	تألّفت بين مسموعٍ ومرئيّ

والصور في الأبيات طريفة غاية الطرافة، فهو يتعجب من بدر يراه في صدر رمح رديين مهيبٍ لإصابة المحب في الصميم، وإنه ليعجب أن يكون سحر العينين ممّوها في حد السيف الماني وأن يرى القمر أمام عينيه يدور على الأرض في كساء فارسي حرير. ويعجب هل العين طرف يديم النظر أو غمد سُل سيفه القاطع، وهل هو بإزاء قد شائق ناعم يتثنى أو بإزاء أعطاف رمح خطي قاتل، ويقول إن الهوى يستعبد الليث الفاتك للظبي الوادي الذي يعيش في كناسه أو مأواه الآمن، ويرى ذائب الشعر على أعالي هذا الغصن الخيزراني الأملس الناعم تقطر ذوب المسك، أما الشفاه فورهاها الثغر الفضي من الأسنان والريق الرحيقي السائغ. وهي صور تدل على خصب الخيال عند ابن منير وقدرته على عرض الصورة الشعرية عرضاً طريفاً. ويقول:

أترى يتثنيه عن قسوته	خده الذائب من رفته
أفأستجده وهو الذي	لون الدمع على صبغته
ولهذا قوسته مُورته	تستمد النبل من مقلته
فمر لا فخر للبدر سوى	أنه صيغ على صورته
صُدغة كرمة خمر قسمت	بين خديه إلى نكهته

(١) الكِناس: مأوى للظبي في الشجر يستتر به.

أتخال الخال يعلو خده نقط مسكٍ ذاتب من طرته
ذاك قلبي سُلبت حبته واستوت خالا على وجنتيه

والقطعة تموج بالصور، فخذ صاحبته يذوب رقة، وقد لون دموعه بلونه الأحمر القاني، وإن قوس حاجبها لمشدود والنبيل في مقلتها يستمدده. وقد بلغت م الجمال وسحره مبلغا عظيما حتى لفخر البدر بأنه صيغ على صورتها، وكأن صديغها أو خصلتي الشعر المرسلتين على خديها كرمة خمر قسمت بينهما واستحالت رضايا في ثغرها يرشفه المحب. ويقول: لا تظن الخال على خدّها نقطة مسك سقطت من طرة شعرها، بل هو حبة فؤاده سلبتها من قلبه وأتاحتها لوجنتها الفاتنة. وتكثر مثل هذه الصور البديعة في شعره وعزله، من ذلك قوله:

وتوقدت في الروض من وجناته نار الحياء يشبها ماء الصبا (١)

وقوله:

وكم له في كبدي لسعة برودها الدرايق من فيه (٢)

وقوله:

سلمت فازور يزوى قوس حاجبه كأنني كأس خمر وهو مخور

وقوله:

قمر ما طلعت طلعتة قط إلا سجد البدر لها

وغزلياته تتردد بين الجزالة والنصاعة في الألفاظ وبين الرشاقة والعذوبة، وله قصيدة رائية من مجزوء الكامل في مملوكه " تتر " أنشدها الحموي في خزانتة تدل على خفة روحه وميله إلى الدعابة، وبحق كان شاعرا بارعا من شعراء زمنه.

(١) يشبها: يوقدها

(٢) برودها: شربها. الدرايق: الترياق الشافي.

الشاب^(١) الظريف

هو شمس الدين محمد بن عفيف الدين سليمان التلمساني، نشأ أبوه في دمشق، وخدم الدولة في عهده جهات، وعلم كاتباً وشيخاً للصوفية وانتظم في سلكهم، ووفد على القاهرة ونزل بها في خانقاه الصوفية الكبيرة المعروفة باسم " سعيد السعداء " وولد له حينئذ ابنه شمس الدين سنة ٦٦١. وعنى بتربيته وبدأ بحفظ القرآن الكريم، حتى إذا أمته أخذ يختلف إلى حلقات الشيوخ، وتفتحت ملكته الشعرية مبكرة، وأخذ ينظم مدائح وغير مدائح، غير أن أباه رأى أن يعود إلى دمشق وعاد معه وظل يذكر صباه بمصر في مثل قوله:

يا ساكني مصر شمل الشوق مجتمع بعد الفراق وشملُ الشكر أجزاء

والتحق أبوه بالدواوين في دمشق، وولى هو عمالة الخزانة بها، وعاش مكفوف الرزق، وأفضى مع أنداده من شباب دمشق إلى حياة فيها غير قليل من اللهو يجتمعون في دورهم أو في المتنزهات، غير أنه لم يعيش طويلاً، إذ عاجلته المنية في الثامنة والعشرين من عمره سنة ٦٨٨.

وقد تناول الشاب الظريف في عشره أغراضاً مختلفة من المديح وغير المديح، وأهم غرض أبدع فيه واشتهر به بين معاصريه ومن جاءوا بعدهم الغزل، لسبب طبيعي وهو أنه طالما تردد على سمعه شعر أبيه الصوفي وغيره من أشعار ابن الفارض وابن عربي، وكأنما تمثل ما في أشعارهم جميعاً من وجد قوي حار، وبثّ منه الكثير في غزله، مصوراً ما يثير الحب في القلوب من المشاعر والعواطف والأهواء، عارضاً ذلك في لغة عذبة سهلة تلذ الألسنة والآذان والأفئدة. وفيه وفي شعره ورقته ينقل ابن شاعر عن ابن فضل الله العمري صاحب مسالك الأبصار قوله عنه وعن شعره:

"تسيم سري، ونعيم جرى، وطيف لا بل أخف موقعا منه في الكرى، لم يأت إلا بما خف على القلوب، ويرى من العيوب، رق شعره فكاد أن يُشرب، ودق فلا غرو للقُضب (الأغصان) أن ترقص والحمام أن يطرب، ولزم طريقة دخل فيها بلا استئذان، وولج

(١) انظر في الشاب الظريف وأشعاره فوات الوفيات لابن شاعر ٤٢٢/٢ و النجوم الزاهرة ٣٨١/٧ وتاريخ ابن الفرات ٨٥/٨ والخزانة لابن حجة الحموي ص ٢٥١ وما بعدها وديوانه مطبوع بالمطبعة الأهلية ببيروت.

القلوب ولم يقرع باب الآذان.. وأكثر شعره بل كله رشيق الألفاظ، سهل على الحفاظ، لا يخلو من الألفاظ العذبة، وما تحلو به المذاهب الكلامية، فلهذا علق بكل خاطر، وولع به كل ذاكر".

وهي شهادة قيمة لابن الفضل الله في الشاب الطريف وشعره غزلا وغير غزل، إذ يموج شعره بالرقّة وحسن الجرس وجمال التناسق، مع خفة الروح، وكأنما حمل في صباه منها غير قليل من أهل القاهرة الذين عاشروهم في نشأته ومطالع حياته، ومن طريق غزله قوله:

لا تخف ما فعلت بك الأشواق	واشرح هواك فكلنا عشاق
فعسى يُعينك من شكوت له الهوى	في حمله فالعاشقون رفاق
لا تجزغن فلست أول مُغرم	فتكتُ به الوجنات والأحداق
واصبر على هجر الحبيب فريما	عاد الوصالُ وللهوى أخلاق
يا رب قد بعد الذين أحبهم	عني وقد ألف الفراق فراقُ

والأبيات تسيل رقة وعذوبة، وهي تلتصق بالنفس لا لما قاله ابن فضل الله العمري أن الشاب الطريف كن يستخدم الكلمات العامية، فليس فهيا من العامية شئ، وربما كان أدق من ذلك أن نقول إنه كان يستخدم أساليب وألفاظا أشبه بألفاظ وأساليب اللغة اليومية المتداولة على ألسنة العامة مع أنها عربية فصيحة، مما يُشيع الاستواء في عباراته وانسجامها انسجام الماء العذب في تحدره ورقته وانطلاقه دون أي عائق لفظي، بل مع العذوبة والحلاوة والرشاقة، على شاكلة قوله:

أعز الله أنصار العيون	وخلد ملك هاتيك الجفون
وضاعف بالفتور لها اقتداراً	وإن تك أضعفتُ عقي وديني
وأبقى دولة الأعطاف فينا	وإن جارت على قلب الطعين
وأسبغ ظل ذاك الشعر منه	على قدّ به هيف الغصون

وهو دعاء لصاحبه ملئ بالظرف والرقّة والدمائة، فهو يدعو لأمثاله من العشاق المفتونين بسحر العيون أن يعزهم الله وان يخلد للعيون أو الجفون هذا الملك العريض

من عالم الجمال والسحر، ويدعو للعيون أن تزداد فتورا حتى يزداد سحرها وشره تأثيراً في القلوب. ويدعو لمثل قوامها وأعطافه أو جوانبه البديعة بالحياة السعيدة وإن أصابته في الصميم: في قلبه. ويستمر في دعائه: أن يسبغ الله ظل ذاك الشعر على قدها الأهيف الضامر ضمور الغصون اللدنة المليئة بالنضرة، ويقول:

لي من هواك بعيدة وقريبة	ولك الجمال بديعة وغريبة
يا من أعيد جماله بجلاله	حذرا عليه من العيون تصيبه
إن لم تكن عيني فإنك نورها	أو لم تكن قلبي فأنت حبيبه
هل حرمة أو رحمة لمتيم	قد قل منك نصيره ونصيبه
لم يبق لي سر أقول تذييعه	عني ولا قلب أقول تذييعه
والنجم أقرب من لقاك مناله	عندي وأبعد من رضاك مغيبه

والأبيات تسيل رقة ونعومة وهو فيها يحوط صاحبته بكل ما يستطيع من شباك التضرع والاستعطاف، فهو عاشق واله، وهي ليست جميلة فحسب بل هي أيضا جلييلة، وهو يعيد جمالها بجلالها حذار من عيون الحاسدين. وهي نور عينه وحبه قلبه، وهو يسألها متوسلا بالرحمة أو حرمة الحب لعلها تتيله شيئا من الود، ويعترف بأن آلامه في حبها ذاعت وشاعت، وقلبه يصلى نار حبها حتى ذات التياعا لطول يأسه من لقاءها حتى ليظن أن النجم أقرب من لقاءها منالا وأبعد من رضاها مغيبا. وهو في غزله دائما ينصب شباك هذا التضرع الطريف كقوله:

بتنتني قوامك الممشوق	وبأنوار وجهك المعشوق
جد بوصل أوزورة أو بوعد	أو كلام أو وقفة في الطريق
أو بإرسالك السلام مع الرّيح	وإلا فبالخيال الطروق

وتدل تمنياته في وضوح على خفه ظله، وأنه رقيق رقة مفرطة مع الدماثة والظروف والتدله في الحب واتقاد جذوته في فؤاده. ولكل ذلك سماه معاصروه بحق " الشاب الطريف". وله وراء ما ذكرنا من شعره موشحات ورباعيات بنفس الروح وبنفس اللغة.

حسن^(١) البوريني

هو حسن بن محمد البوريني، ولد بالأردن في قرية صفورية لسنة ٩٦٣ للهجرة، ونزل مع أبيه دمشق وهو غلام، واختلف فيها إلى حلقات العلماء، ولم يلبث أبوه أن بارحها إلى بيت المقدس، وفيه أتم تعلمه. وعاد إلى دمشق فاشتغل فيها بالتدريس في مدارسها والوعظ في مساجدها. وتولى منصب القضاء في الحد الشامي سنة ١٠٢٠. وكان عالماً ثبته حُفْظُه فصيح العبارة. وله شرح على ديوان ابن القارض الصوفي بحسب المعنى الظاهر، دون أي محاولة لإقحامه بين المتصوفة المتفلسفين أصحاب أفكار الحلول ووحدة الوجود. وكان سنياً شافعيّاً. وله كتاب في تراجم الأعيان لا يزال مخطوطاً بدار الكتب المصرية، وأفاد منه المحبي في كتابه خلاصة الأثر.

وكان البوريني شاعراً مجيداً، وجمع ديوان شعره، ومنه مخطوطة في مكتبة كوبريلي بالأستانة، ويقول فيها الشهاب الخفاجي: "ديباجة الدنيا ومكرمة الدهر، ونكتة عطارد التي يفتخر بها الفخر" وروى له طائفة من غزله، وه وفيه يستقى من نفس المعين الذي استقى منه الشاب الظريف، ونقصد معين الشعر الصوفي وما فيه من وجد ملئع، ويكفي أنه قرأ ديوان ابن الفارض بل لقد شرحه ووقف عند كل معنى من معانيه وكل لفظ من ألفاظه، فطبيعي أن يتأثر بحبه الإلهي الظامئ أبداً وما فيه من خوالج وخواطر لا تكاد تحصي، تصور الحب الملتاع الذي يصحبه دائماً الفراق والحرمان، فما يكاد يهنأ بالحب لحظة حتى ينقع له غراب البين، ويظل في نعيقه وهو يتلهف أشد التلهف على رؤية صاحبتة بمثل قوله:

يقولون في الصبح الدعاء مؤثر	فقلت نعم لو كان ليلي له صبح
وياعجباً مني أروم لقاءه	وفي جفنه سيف ومن قده رمح
وإنسان عيني كيف ينجو وقد غدا	يطول له في لَحّ مدمعه سبوح
وليس عجيباً أن دمعي أحمر	وفي مهجتي قرح وفي مقلتي رشح

(١) انظر في حسن البوريني وشعره ربحانة الألبا ٤٢/١ وخلاصة الأثر ٥١/٢.

فهو يعيش بدون صاحبه في ليل لا آخر له، ويعجب كيف يريد لقاءها وهي مسلحة بجفنها الساحر وقوامها الممشوق، إنه لم يعد له منها سوى الدموع التي يغرق فيها إنسان عينيه، وما زالت عيناه تدمع حتى استحال دمعها دما، ويشعر كأن في مهجته جرحا لا يبرأ وفي مقلته رشحا لا يرقأ. ويقول:

وكنا كغصني بانه قد تألفا	على دوحة حتى استظالا وأينعا
يغنيهما صدح الحمام مرجع	ويسقيهما كأس السحاب مترعا
سليمين من خطب الزمان إذا سطا	خليين من قول الحسود إذا سعى
ففارقتني من غير ذنب جنيته	وأبقى بقلبي حرقة وتوجعا
عفا الله عنه ما جناه فإنني	حفظت له العهد القديم وضيعا

وهي قطعة طريفة، إذ يتصور البوريني أنه هو وصاحبه كانا مثل غصنين لشجرة ضخمة من شجر البان ولدا معا وعاشا معا صيفا وشتاء وتغذيا معا وتناولوا الحياة تناولوا واحدا، ينعمان بشدو الحمام وينهلان من كئوس السحاب منتشين هائنين، لا عدول ولا حسود. وفجأة تهجر صاحبه من غير ذنب جناه. ويصطلي قلبه بنار الحب المحرقة وأوجاع الهجران المؤلمة، ومع ذلك يدعو الله أن يغفر لصاحبه جنايتها، إذ ضيقت العهد والميثاق القديم، أما هو فلا يزال ذاكرة له بل حافظا أميناً. ويقول:

منازلُ هذا القلب كن أوهاً	وها هي من بعد الفرق طُلُوبُ
ويا طربي هل بعد النفار تأنس	ويا بدر هل بعد الأقول قفولُ
ويا منزلَ الأحباب أين ترحلوا	وهم في فؤادي - ما حبيبتُ - نزولُ
يميلون عني للوشاة وإنني	إليهم وإن طال الصدود أميلُ
عليّ لهم حفظُ الوداد وإن جنوا	وليس إلى نقض العهود سبيلُ

وقد فارقت صاحبه وأصبحت منازل قلبه طولاً دراسة، وإنه ليتساءل متحسراً هل بعد النفور تألف وهل بعد أقول البدر قفول ورجوع، ويسأل منزل الجيبة وقومها أني ترحلوا، ويقول إنهم نزول في قلبه لا يفارقونه أبداً، وحتى إن هم سمعوا للوشاة وأطالوا له الصدود والهجران فسيظل متعلقاً بهم حافظاً لودادهم لا ينقض العهود لا ينكثها، بل

سيزداد تعلقه وحبه واستمساكه. وما يلبث أن يخاطب في نفس القصيدة قمرى أو كما يسميه ابن ورقاء أي حمامة رمادية اللون قائلاً:

وما هاجني إلا ابنُ ورقاء سُحرة	له فوق أفنان الرياض هديل
يردد في حصف الرياض قصائدا	من الشوق يُملئها لنا ويميلُ
يخيل أن البين آذى فؤادهُ	وكيف ولما ينأ عنه خليل
ولم تحتكم فيه الليالي ولم يبين	عليه لبين رقة ونحول
أما والهوى لو نقت ما نقتُ في الهوى	لما ازدان بالأطواق منك تليلُ
ألا إنه ما فارق الالف دهره	ومالي إلى وصل الحبيب وصولُ

وهو يوازن بينه وبين قمرى يتغنى سحرا بأشواق ماس يني يرددها في حصف الرياض ويمليها مخيلاً كأنه يشكو من آلام بين مبرح ولا بين ولا فراق، فحبيبته بجانبه لم تفارقه ليلة، ولا أصابه لفراقها ضنى ونحول. ويقسم له بالهوى لو ذاق أوجاعه وتباريحه ما ازدان تليله أو عنقه بطوق، ويقول له إنه لم يفارق أليفته يوماً بينما هو ينتظى بنار الفراق والهجران. وكن يعرف الفارسية وقد ترجم عنها قوله:

ورقُ الغصونِ دفاتر مشحونةُ مملوءة بأدلة التوحيد

ولعل فيما قدمنا ما يدل على روعة غزلياته، وهو فهياً دائماً مشوق يتمنى الوصل وأن تذوب حُجب الهجران. وما زال يردد هذا المعنى وما يتصل به، حتى لبي نداء ربه بدمشق لسنة ١٠٢٤ للهجرة.

شعراء الفخر والهجاء

موضوعا الفخر والهجاء من موضوعات الشعر القديمة منذ الجاهلية، ومعروف أن شعر الفخر والحماسة الحربية غلب عليها قديما، حتى سمي أبو تمام مختاراته الشعرية الكبرى باسم الحماسة تغليبا لهذا الموضوع على موضوعات الشعر الأخرى عند العرب في جاهليتهم وإسلامهم، وكان يرحمه من قديم شعر الهجاء، إذ كانوا يفخرون بانتصاراتهم الحربية ويهجون خصومهم بهزائمهم، يستثيرون بذلك قبائلهم لتخوض معارك جديدة أشد فتكا في الأعداء. وكانت معارك العرب - على مر السنين - بينهم وبين الأمم وقوداً مستمراً للفخر والهجاء، فلم تخدم لهما نار، بل لقد اشتد أوارها كلما تقدمنا مع الزمن، وكان شعراء الشام يشاركون في تلك المعارك بسهام شعرية النارية. ونكتفي بذكر شاعرين كبيرين قريبين من هذا العصر هما أبو تمام والبحتري، وكانا أشبه بمكاتبين حربيين، فهما يحضران المعارك مع ثوار إيران ومع الروم في آسيا الصغرى، ويصوران كيف احتدمت الحرب وبلاء الجيوش العباسية وقوادها فيها وما أنزلوا بالأعداء من محق لا يكاد يبقى منهم باقية. وبجانب هذا الفخر والهجاء الحربي كان هناك الفخر والهجاء السلميان اللذان ينظمها الشعراء لبيان ما يشتملون عليه هم وأقوامهم، أو هم أنفسهم، من مثالية خلقية رفيعة وما يتصف به أعداؤهم أو بعض خصومهم من أخلاق شائنة يزدريها المجتمع. وهذا الفخر والهجاء الجماعيان والفرديان نجدهما عند أبي تمام والبحتري وغيرهما من الشعراء، وكثيرا ما كان يحدث ذلك بين الشعراء أنفسهم، فنجد - بعامل المنافسة - شاعرا يفاخر زميلا له ويهاجيه.

وكل ذلك نراه شائعا في هذا العصر: عصر الدول والإمارات، وكانت الحرب محتدمة في أوائله بين سيف الدولة الحمداني أمير حلب وبين الروم، وكان يكيل لهم ضربات قاصمة، مما جعل كثيرين من الشعراء يمدحون بطولته وبطولة جيوشه العربية مفاخرين الروم وهاجين منذرين جموعهم بمعارك تدق أعناقهم دقا ولا تبقى ولا تذر. وبجانب ذلك نجد الفخر والهجاء الفرديين محتدمين بين بعض شعراء حاشيته على نحو ما حدث بين الخالديين والسري الرفاء. وشاعر الفخر الشامي الذي لا يباري في القرن

الرابع الهجري أبو فراس الحمداني، وسنخسه بترجمة مفردة. وربما كانت أروع قصيدة فخر نظمها شعراء الشام في القرن الخامس الهجري قصيدة أبي العلاء المعري التي أشرنا إليها في ترجمته وفيها يقول (١):

عفاف وإقدام وحزم ونائل	ألا في سبيل المجد ما أنا فاعلُ
ولا ذنب لي إلا العُلا والفضائل	تُعد ذنوبي عند قوم كثيرة
بإخفاء شمس ضوءها متكامل	وقد سار ذكرى في البلاد فمن لهم
لآت بما لم تستطعه الأوائل	وإني وإن كنت الأخير زمانه
على أنني بين السماكين نازل	ولي منطق لم يرض لي كُنه منزلي
تجاهلتُ حتى ظُن أني جاهلُ	ولما رأيت الجهل في الناس فاشياً
وا أسفا كم يُظهر النقص فاضل	وواعجبا كم يدعى الفضل ناقص
وتحسدُ أسحاري عليّ الأصائلُ	ينافسُ يومي فيّ أمسي تشرفاً

والقصيدة تتاقض شخصية أبي العلاء المتشائمة الزاهدة في الحياة وكل ما فيها من مجد، وإما نظمها تقليداً ومحاكاةً لسابقه في فن الفخر، وإما نظمها في ساعة غضب رداً على بعض شائثيه وخصومه. ومع ذلك فيه تصور مكانته في الأدب العربي، وأنه فيه - بحق - السابق المجلي، وهو يقول: من أين ليلحقني الذم وأنا أنهض بكل ما يسكبني المجد والشرف من العفاف الطاهر والإقدام الجريء والحزم النافذ والنائل أو الجود السابغ، ويقول إنه ليس فيه ذنوب ولا عيوب إلا إذا عُدت العلاء والفضائل ذنوباً وعيوباً، ولن تعد المحاسن كذلك أبداً. وإن ذكره ليعم البلاد كما يعمها ضوء الشمس الغامر الذي لا يستطيع أحد إخفاءه، وإن كان زمانه قد تأخر فإنه أتى بما لم يستطعه الأوائل، ومع أنه بين السماكين في السموات العلاء لا يزال منطقة أو عقله يطلب منزله أعلى شأنًا. ولما رأى الجهل فاشياً تجاهل حتى ظن الأغبياء أنه جاهل، وتعجب من ادعاء الناقص الفضل وتحسّر على تظاهر الفاضل بالنقص. ويقول إن كل وقت يتمنى أن يكون فيه دون غيره من الأوقات، فأسمه يحسد عليه يومه وأصيل اليوم

(١) ديوان سقط الزند (طبع دار الكتب المصرية) ٥١٩/٢.

يحسد عليه سره. ويمضى أبو العلاء في القصيدة بهذا الصوت الضخم المججل كالرعد القاصف.

وكان يعاصر أبا العلاء ابن سنان الخفاجي المتوفى سنة ٤٦٦ للهجرة، وله يفخر بقومه وبلاتهم في حرب الثغور ضد الروم^(١):

أهل الثغور إذا تلم ملمة بسطور رماحاً دونها وسواعدها
وأولوا التقى فإذا مررت عليهم لم تلق إلا مكرنا ومجاهدا
إن حاربوا ملئوا البلاد مصارعاً أو سالموا عمروا الديار مساجدا
بيت له النسب الجلي وغيره دعوى تريد أدلة وشواهدا

وهو يفخر ببأس قومه وتقواهم وأنهم في الحرب يملئون ساحات المعارك بينهم وبين الروم صرعى مقتولين. وإذا أفضوا إلى السلم ملئوا الديار مساجد، ويقول إن بيتهم عريق في العرب لا يطاوله أي بيت. ومن شعراء الفخر في زمن الفاطميين والأيوبيين أسامة بن منقذ وسنفرده له ترجمة- ولابن الساعاتي المار ذكره^(٢):

وإني لأبي الضيم من كل صاحبٍ وأكره قلبي أن يكون له خدنا
وإن بلد لم أغد فيه مكرماً نهضت فأعملت الجدلية البُدنا^(٣)
وما شان فضلي بين أهلي خموله وقد بلغت غاياته الإنس والجننا
فإني كعود الهند هين بدوحيه وقد عبقت أنفاسه السهل والحزنا

فهو يأبي الضيم شاعرا بالكرامة شعورا عميقا، حتى لو أحس أن بلدا ينبو به رحل عنه إلى غير إياب، ويبالغ في بيان فضله قائلاً إنه شاع بين الإنس والجن، وإن اعتراه خمول بين أهله فمثله مثل عود الهند لا يُعرف فضله في دوحته، بينما رائحته العطرة تملأ السهل والحزن من الأرض.

(١) ديوان ابن سنان الخفاجي ص ٢٣.

(٢) ديوان ابن الساعاتي ٢/٢١٤.

(٣) الجدلية البدن: النوق الضخمة.

ونظّل نستمتع إلى هذا الصوت الأَجَش المعتز بنفسه وكرامته طوال أيام المماليك
وبالمثل أيام العثمانيين كقول ابن الجزري المار ذكره^(١):

يقدمني عزمي وحظي مؤخري	ويوصلني حزمي ودهري يقطع
وهمي من الدنيا المعالي ونيلها	وما هم قلبي الرقمتان وللع ^(٢)
ولا رشا أحوى ولا صوت قينة	ولا قدح فيه الرحيق المشعشع ^(٣)
ولكنما لدن وأجرد سابع	ومسرودة زعفا وأبيض يسطع ^(٤)

وهو صاحب عزم وحزم ونفاذ في الأمور وإن لم يسعفه الحظ والدهر. وهمه طلب المعالي والظفر بها لا بمن يسكن روضتي الرقمتين وجبل لعلع من سمر الشفاه، ولا بمن يتغنين غناء جميلاً، ولا بالأقداح من رحيق الخمر وشرابه. إنما همه رمح لين قاتل وفرس مسرع ودرع واسعة محكمة وسيف ساطع يضيء في غبار الحرب حين يسله على رقاب الأعداء. إنه من أهل العزم والحزم والمعالي لا يشغف بحب ولا بغناء ولا بخمر، إنما يشغف بالبأس في الحرب وتقتيل الرجال وسفك دمائهم.

وبجانب هذا الفخر كان يدور هجاء كثير، وخاصة لمن لا يجزون الشعراء الجزاء الوافر وكثيراً ما كانت تحتدم بينهم المناقسات، فيفزعون إلى سهام الهجاء يصوبها الخصم منهم إلى خصمه صباح مساء. وقد يصبح الهجاء سهاما سامة قاتلة، وقد يصبح سخرية جارحة، وقد يصحب دعابة وإن لم تخل من مرارة، كقول عبد المحسن الصوري وقد نزل ضيفاً على أخ له^(٥):

وأخ مسه نزولي بقرح	مثل ما مسني من الجوع قرح
بت ضيفاً له كما حكم الده	رُ وفي حكمه على الحر قُبح
قال لي إذ نزلت وهو من السكر	والهم طافح ليس يصحو

(١) ربحانة الألبا ١/١١٨.

(٢) القمتان: قريتان في شرق نجد أو روضتان ويذكرهما شعراء الغزل. لعلع: جبل في نجد.

(٣) الرشأ: ولد الطيبة وتشبه به الفتيات، والحوة: سمرة في الشفة، الرحيق المشعشع: العسل الممزوج.

(٤) اللدن: المرح. أجرد: فرس، مسرودة: درع. زعفا: سابعة، أبيض: سيف.

(٥) اليتيمة ١/٣٠٠.

لم تغربت قلت قال رسول الله

والقولُ منه نُصح ونجعُ

سافروا تغنموا فقال وقد قال

تمام الحديث صوموا تصحوا

وهي دعابة تلسع لسع الإبر، فقد صور نزوله على مضيفه بقرح وهو ما يصيب الإنسان من عض السلاح ونحوه، كأنما نزوله عليه كان كارثة، وقال إنه مسه منن الجوع قرح لا يزال ينز ألما، وكأنما يستلهم آية سورة آل عمران: (إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ) أي إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتهم منهم يوم بدر. ويقول إن الدهر هو الذي حكم عليه هذا الحكم القبيح، ولقد أصابته سكرة منن الشح والههم، فسأله سؤالا مزريا: لم تغربت ونزلت عندي، فأجابه لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم سافروا تغنموا، فبادر إليه يقول: تمام الحديث: صوموا تصحوا، وكأنه يطلب إليه أن يظل جائعا بل أن يصوم ويظل صائما ما ظل عنده. ويقول الغزي المتوفى سنة ٥٢٤ في هجاء حاكم من حكام إيران يسمى شروانشاه^(١):

رأيت لؤما مصورا جسدا	شيمته الاحتيال والكذب
على سرير كالنعش لا رهب	يلعوه من هيبه ولا رغب
يجبه بالهجر من يخاطبه	بين السعالي وبينه نسب ^(٢)
يفرقه الناس للسفاهة وال	عقربُ يُخشى وخذه ترب
للجمع والمنع قائم أبداً	كالفيل لا تنتهي له ركب

وهو هجاء لاذع كوى به جلد هذا الحاكم، بل لقد تحولت الأبيات في يد الغزي إلى ما يشبه سياتا بل شواظا من نار يصبه فوق رأسه صبا، فهو تمثال للؤم والكذب، يجلس لا على سرير بل على نعش لا يظله رهب منه ولا رغب في ماله، لما عُرف عنه من شحّ بغيض، وأنه يصكّ مخاطبه بكلام قبيح، وكأنما هو ليس من البشر، بل عن بينه وبني الغيلان نسبا نميما. والناس يخشونه لسفاهته كما يخشون العقرب وخدها ملطخ بالتراب، وكأنما خلق كالفيل قائما أبدا إذ لا ينام فعيناه مشدودتان دائما لجمع المال ومنعه من مستحقه شحاً بغيضاً لا يدانيه شح. وكان العرقلة الكلبى المتوفى سنة

(١) الخريدة (قسم الشام) ١٩/١

(٢) السعالي: الغيلان

٥٦٧ كثير الهجاء حتى هجا نفسه، وله من أبيات وقد أعطاه بعض من مدحهم لا مالا، بل شعيرا فقال^(١):

يقولون لم أرخصت شعرك في الورى فقلت هم إذ مات أهل المكارم
أجازي على الشعر الشعير وإنه كثير إذا استخلصته من بهائم

ومنذ زمن الغزي يشكو الشعراء كثيرا من أنهم لا ينالون ما يستحقونه على أشعارهم من ممدوحيهم، بل عن منهم من يعطيهم رُقعا مسطرة دون أن يفي بما فيها، وكأنها كلام كاذب بكلام. ومن كبار الهجائيين في أيام الأيوبيين بدر الدين عبد الرحمن بن المسجف المتوفى سنة ٦٣٥ للهجرة، وله يهجو جماعة من إخوانه أو عصابته كما يقول^(٢):

يا رب كيف بلوتني بعصابة ما فيهم فضل ولا إفضالُ
متنافري الأوصاف يصدق فيهم الهاجي وتكذبُ فيهم الآمال
جُبِن إذا استنجدتهم لملمةٍ لؤمًا إذا استرفدتهم بُخال
هم في الرخاء إذا ظفرت بنعمةٍ آل وهم عند الشدائد آل

وهو يخلي عصابته من كل فضل ويرياها جديرة بكل مذمة في مهجو إذ تكذب فيها دائما الآمال. ويصف أفرادها بأنهم جنباء عند الشدائد، لؤماء بخلاء، وهم في الرخاء أهل أو آل كما يقول، وفي الضراء سراب أو آل يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا. وولي السلطان الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٤ قضاة أربعة يمثلون المذاهب الفقهية: المذهب المالكي والحنفي والشافعي والحنبلي ولقب ممثلي هذه المذاهب ما عدا المذهب المالكي شمس الدين، فاتخذ الشعراء ذلك موضوعاً للهجاء الفكه الساخر من مثل قول بعضهم^(٣):

أهل الشام استرابوا من كثرة الحكام
إذ هم جميعا شمسٍ وحالهم في ظلام

(١) الخريدة (قسم الشام) ١٨٢/١

(٢) فوات الوفيات ٥٣٩/١

(٣) النجوم الزاهرة ١٣٧/٧ وانظر ذيل الروضتين لأبي شامة (الطبعة الأولى) ص ٢٣٦

وكان شرب الحشيش المخدر عُرف بين أراذل الناس يدخنونه ويمضغونه وقد يبلعونه، وشدّد الظاهر بيبرس النكير على من يتعاطونه، ونظم كثير من الشعراء في ذمه كقول الشاب الظريف^(١):

ما للحيشة فضل عند أكلها لكنه غيرُ مصروفٍ إلى رشده
صفراء في وجهه خضراء في فمه حمراء في عينه سوداء في كبده

وهو يقبّحها غاية التقبيح بآثارها في ماضغها من صفرة تعتري وجهه وحمرة تشوب عينه وسواد لا يزول في كبده. ويقول مجبر الدين بن تميم المتوفى سنة ٦٨٤ للهجرة في هجاء كحال^(٢):

دعوا الشيخ من كمحل العيون فكفه يسوق إلى الطرف الصحيح الدواهيا
فكم ذهبْتُ من ناظرٍ بسواده وألقت بياضا خلفها وماقيا

فكله يعمي الأبصار ويقضى قضاء مبرما على سوادها ونظرها ولا يبقى بها بصيصا ولا غير بصيص. ولبعض شعراء دمشق في هجاء القاضي شهاب الدين أحمد الباعوني الشافعي المتوفى سنة ٨١٦ للهجرة^(٣):

(١) النجوم الزاهرة ٣٨١/٧.

(٢) فوات الوفيات ٥٤٠/١.

(٣) النجوم الزاهرة ١٤/ ١٢٤.

قضاء الشام أنشدني بديني لا تبيعوني
صُفعت بكل مصفعةٍ وبعد الكلّ باعوني

وكانه أدخله فيما نزل بهذا القضاء من صفعات متوالية، وفي كلمة "باعوني" تورية واضحة فهو لا يقصد "باعوني" من البيع وإنما يقصد القاضي الباعوني.

ويظل الهجاء على أسنة الشعراء يرمون بسهامه من لا يروقه من الحكام ومن لا يسبغ عليهم نواله حتى أيام العثمانيين، على شاكلة قول يوسف بن عمران الحلبي المتوفى سنة ١٠٧٤ للهجرة في بخيل^(١):

بخيلٌ لو بيوم منه جادٌ أنامله لغالته الندامة
ولو في النار ألقى ألف عامٍ لما عُرِفَتْ له يوماً سلامة
ولو صارت بسُفرتَه رغيفاً ذُكاء لما بدتْ حتى القيامة

فهو شحيح لو فاته شحُّه يوماً لظل نادماً أبداً. وما تُجرى له سلامة من النار بل سيظل خال، فيها وإن مائدته لتخلو دائماً من كل طعام حتى من الخبز ورغفان العيش المستديره كالشمس، ولو أنه ألقى رغيفاً عليها ناسياً لاستترت الشمس حتى القيامة كسوفاً وخجلاً أن يرى شبيهاً على سفرتَه أو مائدته. وحري بنا أن نترجم لنفر من شعراء الفخر والهجاء.

(١) ربحانة الألبا ١/١٠٨

أبو فراس^(١) الحمداني

هو الحارث بن سعيد بن حَمْدان الحمداني التغلبي، كان أبوه واليا على الموصل للخليفة الراضي، وكان مشهورا مثل إخوته وأبناء أسرته بالفروسية والشجاعة، واقترب برومية أنجب منها ابنه الحارث سنة ٣٢٠ ولقبه أبا فراس وهي كنية الأسد رمزاً لفروسيته المستقبلية وهو رمز حقيقته الأيام. ولم يلبث سعيد أن قُتل غدرا وابنه يخطو في سنته الثالثة، وعينت به أمه، وأحضرت له المعلمين في صباه. ولم يلبث ابن عمه وزوج أخته سيف الدولة الحمداني أن اشترك مع الأم في العناية والرعاية، حتى إذا اقتطع لنفسه حلب وبعض ثغور الشام انتقل إليها ومعه أسرته سنة ٣٣٣ ومعه أبو فراس الذي كفله وقام على تربيته فارساً وأديباً خيراً قيام، إذ أعطاه لبعض المدربين يدرّبونه على الفروسية، وللبعض المعلمين والمؤدبين من مثل ابن الخالوية وسرعان ما ظهر فروسته ونجابته، فمنحه ضيعة بمنج بلدة بقرب حلب، ولم يلبث أن ولاه عليها وهو شاب في السادسة عشرة من عمره، وكان يلزم ابن عمه في حروبه للروم وقد يسوق إليهم فيالق يقودها بنفسه ويعود إلى منبج، مفضيا أحيانا إلى الصيد وبعض اللهو، وفي ديوانه مزدوجة طردية. غير أن من الحق أنه لم يكن مشغوقا بصيد الحيوان إنما كان مشغوقا بصيد أعداء العرب والإسلام من الروم. ومرّ بنا في حديثنا عن شعراء التشيع أنه كان شيعي الهوى، وقد عرضنا لميمته الملقبة بالشافية التي دافع فيها عن العلويين ضد العباسيين دفاعاً حاراً. وتشيع الحمدانيين عامة مشهور وكانوا شيعية إمامية.

وظل يركب في مقدمة الصفوف مع ابن عمه وصهره لدق أعناق الروم، وحاول أن يستخلفه عنه بحلب في إحدى غزواته، فاستعطفه راجياً أن يصحبه في حربه. وكان داماً يبلى بلاء حسناً في تقتيلهم وتمزيقهم شر مزق، وفي يوم من أيام شوال سنة ٣٥١ كان عائداً إلى منبج من الصيد مع غلمانة وإذا بكتيبة من الروم بقيادة " تيودور " تباغته فيدافع إلى أن تتخذه الجراح ويصيبه سهم في فخذه ويبقى نصله فيه، ويؤسر البطل

(١) انظر في أبي فراس وشعره البيتمة ٣٥/١ وما بعدها وتهذيب ابن عساكر ٤٣٩/٣ وزيدة الحلب ١٥٧/١ وابن خلكان ٥٨/٢ والشذرات ٢٤/٣ وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٩٢/٢ ومقدمة د. سامي الدهان لتحقيقه لديوانه وقد قابله على ٤٠ مخطوطة محفوظة في مكتبات العالمين العربي والغربي ووضع حواشيه ورتب فهرسه.

المغوار، ويقدم به تيودور إلى خرشنه ويظل بها فترة. ثم ينقل إلى القسطنطينية، ويذوق ذل الإسار وألم الجراح، غير أن نفسه تظل صلبة عاتية لا تتكسر أبداً، بل تزداد مع الأيام عتواً وصلابة. ويكبر الروم في أبي فراس فروسيته وبطولته فينزلونه في قصر على البحر ويخصصون له خادماً يقوم بأمره، ويأبى أن يخلع دروعه وسلاحه، فيظل بهما في أسره.

ويطول الأسر أربع سنوات. فتكثر أشعار أبي فراس إلى أهله وسيف الدولة وخوانه مؤملاً في الإسراع بفدائه، وكان محمد أخره أن سيف الدولة يريد فداء عاملاً له ولكل من معه من المسلمين ممن وقعوا قهراً في شرك الروم. وفي سنة ٣٥٥ يتفق الروم وسيف الدولة على اللقاء لفداء أسرى الطرفين، وفي شهر رجب ينزل أبو فراس مع ثلاثة آلاف أسير عربي بخرشنه، ويقدم سيف الدولة بأسرى الروم ويفتدي بهم أبا فراس ومن معه من أسرى العرب. ويتم الفداء ويعود أبو فراس إلى حلب. وتأثر تأثراً شديداً لمرض سيف الدولة وما أصابه جنوده من انكسارات وانهزيمات متلاحقة. ويتوفى سيف الدولة في السنة التالية، ويدور العام، ويحاول أبو فراس الاستيلاء على حمص من يد ابن سيف الدولة أبي المعالي ويلقاه مولاه فرغويه في جمادي الأولى سنة ٣٥٧ ويكون في ذلك حنقه، ويقال إنه سقط جريحاً في ساحة الحرب وشعر بدنو أجله فأنشد أبياتا يخاطب بها ابنته معزياً قائلاً ي ختام أبياته بلسان حالها:

ثم يمّت بالشباب

زين الشباب أبو فراس

وطبيعي أن لا يكون المديح الموضوع الذي يستنفذ شعر هذا الأمير الفارس، إذ لم يكن في حاجة إلى التكسب بشعره، وأن يكون الفخر هو الموضوع الذي يستغرق شعره: فخره بقبيلته تغلب وأمجادها منذ الجاهلية، وبأسرته الحمدانية ومناقبها وما قدمته للعباسيين من انتصارات على الخوارج والقرامطة، وعلى الروم القطع الأرجوانية في ديوانه، وفيها غزل ورثاء واستعطاف كثير لابن عمه سيف الدولة كير يرد إليه حريته ليعود معه لمنازلة الروم وقراعهم قراعاً لا يبقى منهم ولا يذر، وبين قصائدها بائية يرد بها رداً عنيفاً على الدمستق حين طعن في العرب وبسالتهم الحربية، وفيها أخذ يذكره باندحاراتهم أمام سيف الدولة ومقتل أخيه في مرعش وجرح أبيه بها في وجهه وأسر ابن أخته في اللقان وما كان من فراره على وجهه لا يلوى. وهو في روميته يحنّ إلى

ملاعب صباه وشبابه ويشتاق إلى زوجه وأبنائه ويرثى لأمه العليلة وهي تسأل عنه
الركبان حين أسر قائلاً على لسانها:

يا من رأى لي بحصن خرشنة أسد شرى في القيود أرجلها
ويرد عليها مسرعاً:

يا أمنا هذه مواردنا نعلها تارة ونهلها (١)

فمواردهم الحرب، يقتلون الأعداء وتقتلهم ويأسرون الأعداء وتأسرهم ولا تتال القيود
الثقيلة من أقدامهم. ويقول في قصيدة ثانية: لولا أُمي العجوز ما خفت أسباب المنية ولا
طلبت الفداء من ابن عمي أبداً. ويقول لها:

يا أمنا لا تيأسي الله الطافُ خفيه
أوصيك بالصبر الجميد ل فإنه خير الوصية

فهو واثق في الله ثقة تامة، وهو لا ييأس أبداً من فضله ورعايته، مع عزة نفس لا
تمائلها عزة بل مع صلابة روح لا تشبهها صلابة، وتبدو هذه الصلابة منذ أيامه
الأولى في الأسر ونزولهم به في خرشنه، إذ سرعان ما أنشد:

إن زرت خرشنة أسيراً فلقد حلتُ بها مغيراً
ولئن لقيت الحزن فيك فقد لقيتُ بك السرورا

ويقول إنهم طالما فتكوا بأهلها وسبوا نساءهم الحور الفاتنات، وكم أشعلوا بها نيرانا
التهمت المنازل والقصور وأتت عليها كأن لم تكن شيئاً مذكوراً. ونشعر كأنما تجسدت
في روح أبي فراس كل معاني القوة العاتية التي تميز بها العرب وفتحوا بها العالم القديم
من أواسط آسيا إلى شماليّ إسبانيا، على الرغم من أسره وما كان يعانيه من ألم وحزن،
وكأنما يحمل بين جنبيه روحا لا يمكن أن تقهر مهما نزل بها من كوارث وخطوب.

(١) نعلها: نشربها تبعاً، نهلها: نشربها ابتداءً.

وربما كان أروع قصائد أبي فراس حينئذ قصيدته الرائية التي نظمها حين قال الروم إن أبا فراس وحده من بين الأسرى هو الذي لم نسلب منه سلاحه، وقد بدأها بحوار بينه وبين إحدى صواحيبه.

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر	أما للهوى نهى عليك ولا أمر
بلى أنا مشتاق وعندي لوعة	ولكن مثلي لا يُذاع له سر
معلتي بالوصل والموت دونه	إذا مت ظمّانا فلا نزل القطر
تسألني من أنت؟ وهي عليمة	وهل بفتى مثلي على حالة نكر
فقلت كما شأنت وشاء لها الهوى	قتيلك قالت أيهم فهم أكثر
وقالت لقد أزرى بك الدهر بعدنا	فقلت معاذ الله بل أنت والدهر

وهو حوار وغزل فيهما فتوة وقوة، فهو لا يبكي، بل هو صابر صبر الرجال الأشداء، مع ما يستعر في قلبه من لوعة إزاء معلته بوصل لا يناله، وكأنما تغير كل ما فيه فلم تعرفه وتساءله من أنت؟ تجاهل العارف، فيقول لها قتيلك، فتسأله أيهم فهم كثيرون. وتقول له: لقد نال منك الدهر، يكني بذلك عن أسره، فيقول لها معاذ الله: بل أنت والدهر. ويمضي في حوارها قائلاً لها: لا تتكريني يا ابنة العم فإنني غير منكر في معمعان المعارك وقيادة الكتائب المعوذة النصر واقتحام المخاوف والمخاطر المهلكة إلى الروم أسفك دماءهم وأسبى نساءهم دون أن أهتك لهم سترا أو أكشف لهم ثوبا، وما يلبث أن يصيح بكل فتوته:

أسرت وما صحبي بغزل لدى الوغى	ولا فرسي مهر ولا ربه غمر ^(١)
ولكن إذا حم القضاء على امرئ	فليس له بر يقيه ولا بحر
يمنون أن خلوا ثيابي وإنما	علي ثياب من دمائم حُر
سيذكرني قومي إذا جد جدهم	وفي الليلة الظلماء يُفتقد البدر
ونحن أناس لا توسط بيننا	لنا الصدر دون العالمين أو القبر
تهون علينا في المعالي نفوسنا	ومن خطب الحسنة لم يغله المهر

(١) غمر: قليل التجربة. عزل: لا يحملون سلاحا

أعز بني الدنيا وأعلى ذوى العلا وأكرم من فوق التراب ولا فخر

يقول: أسرت وورائي صحبي يشهرون السيوف في الحرب ولا يغمدونها أبدا، إنهم فرسان أبطال، وما أصرت جبنا ولا كان فرسي مهرا صغيرا بل كان مدريا على القتال، وكان صاحبه فارسا شجاعا يحسن النزال والفتك بالأعداء، وإنما هو القضاء الذي لا معدي عنه ولا مفر منه في بر أو بحر. ويتجه إلى الروم غاضبا لقولهم إنهم منوا عليه بتركه لأبسا لأمته وعدته الحربية، وهو استشعار للفتوة والقوة ما بعدها استشعار. ويقول إن دروعه ملطخة بدمائهم، إذ طالما دق نصال سيوفه في أعناقهم وصدورهم. ويلتفت إلى قومه فيقول إنهم سيذكرونه حين تدق أجراس الحرب، سيذكرون فروسيته وبطولته وبلاءه في الأعداء. وكأنما يضع قوانين الشباب العربي والأمة العربية، إنها ترمى بنفسها في أتون الحرب فإما الصدر دون العالمين أو القبر، وإن رجالها وأبطالها ليبدلون أرواحهم في نيل المعالي، ومن خطب الحسنة لم يغله المهر ولم يعده باهظا، بل إنه يقدمه راضيا حتى لو كان روحه وقلبه. ويقول من مثلنا: نحن أعز الناس وأعلاهم وأكرمهم بذلا. والقصيدة تعويذة رائعة لفتوة العرب وصلابتهم، وهي جديرة بأن يضمها كل شاب عربي إلى صدره وذاكرته يحفظها ويترنم بأبياتها البديعة. وحانت منه النفاته - وهو في سجنه - إلى شجرة عالية فرأى على أحد غصونها حمامة وسمعها تتوح، فأنشد:

أقول وقد ناحت بقربي حمامة	أيا جارتا هل تشعرين بحالي
معاذ الهوى ما دُقت طارقة النوى	ولا خطرت منك الهموم ببال (١)
أتحملُ محزون الفؤاد قوادم	على غُصن نائي المسافة عالي (٢)
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا	تعالى أقاسمك الهموم تعالي
أضحك مأسور وتبكي طليقة	ويسكت محزون ويندب سالي
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلّة	ولكن دمعي في الحوادث غالي

(١) النوى: الفراق

(٢) القوادم: ريشات أربع كبار في مقدم الجناح.

وقد أثار نواح هذه الحمامة بمرأى منه ومسمع الشجون في نفسه، ويُعيذها من نوى وفراق كفارقة وغربه كغريته وهموم كهوممه. ويتساءل هل تحمل قوادم هذه الحمامة فؤادا محزونا؟ ويقول إن الدهر لم ينصف بينهما ويتساءل كيف يضحك أسير فقد حرّيته وتبكي حرة طليقة؟ بل كيف يسكت مخزون ويخرس لسانه وتتذب سالية ندبا متصلا؟ ولا يلبث أن يقول لها: لقد كنت أولى منك بالبكاء بكاء لا تتقطع دموعه بل تظل منهمة، غير أن دمعي في الحوادث والنكبات غال لا يسيل أبدا، وإنه ليتجشم أثقالها ويتحملها في قوة. وشعر أبي فراس وراء روميّاته يكتظ بالفخر والحماسة، وله قصيدة رائية في ٢٢٥ بيتا فخر فخرًا مضطربا بمناقب أسلافه الحمدانيين وأيامهم في الإسلام وما شادوه من إماراتهم في الموصل وحب. وشعره - بحق - يُضرم الحمية في النفس العربية.

عَرَقلة (١)

هو حسان بن نمير الكابي الدمشقي، ولد سنة ٤٨٦ و حفظ القرآن صغيرا ثم اختلف إلى حلقات العلماء، ولم تلبث ملكته الشعرية أن تفتحت، فغدا بعشره على أبواب حكام دمشق يمدحهم وينال جوائزهم. وكان لأسرة طغتكين نصيب كبير من مديحه، وخاصة أبق آخر حكامهم لدمشق قبل استيلاء نور الدين أمير حلب عليها. ويبدو أن الرحلة كانت محببة إليه، إذ نراه يرحل إلى حلب ويفقد إحدى عينيه في تلك الرحلة، ولذلك لقبه معاصروه بعرقلة الأعور، ورحل إلى الموصل وبغداد ونزل في قلعة جعبر ومدينتي آمد وماردين. وزار مصر وبقي بها مدة وتوثقت الصلة فيها بينه وبين الوزير طلائع بن رزيق وكان شيعيا أماميا، وله فيه طائفة من المدائح، ويذكر له في إحدى مدائحه أنه شيعي قائلاً:

أنا من شيعة الإمام حسين لست من سنة الإمام يزيد

فهو ليس سنياً ممن ارتضوا يزيد بن معاوية قاتل الحسين إماما لهم، بل هو شيعي من أنصار الحسين. وعاد إلى دمشق وكانت تابعة لنور الدين، وكان أيوب بن شاذي

(١) انظر في عرقلة الدمشقي وشعره الخريدة (قسم الشام) ١/١٧٨ و فوات الوفيات و النجوم الزاهرة ٦/٦٤ والشذرات ٤/٢٢٠ وقد طبع مجمع اللغة العربية بدمشق ديوانه.

وأخوه أسد الدين شيركوه وابنه صلاح الدين في مقدمة حاشية نور الدين ورجاله، وتولى بعضهم شئون دمشق وكان صلاح الدين على شرطتها فاتصل بهم يمدحهم وأسبغوا عليه عطاياهم، وكان خفيف الروح فقربوه منهم واتخذوه نديما لهم في مجالس لهوهم وسمرهم. وكان صلاح الدين من بينهم يوده ويصادقه ويُحضره مجالس أنسه. ووصفه العماد الأصبهاني حينئذ فقال: "لقيته بدمشق شيخا خليعا ربعة مائلا إلى القصر أعور مطبوعا حلو المنادمة لطيف النادرة معاشر للأمرء، شاعرا مستطرف الهجاء، لم يزل خصيصا بالأمراء السادة بني أيوب ينادمهم ويداعبهم ويطايبهم قبل أن يملكوا مصر، والملك الناصر صلاح الدين يوسف أشغفهم بنكته، وأكلفهم بسماع نتفه، وله فيه مدائح، ولديه منه منائح" وكان صلاح الدين وعده أنه متى ملك مصر يعطيه ألف دينار، ووفى له بوعده غير أنه لم يلبث أن وافاه القدر سنة ٥٦٧.

ويبدو أن عرقلة كان في أوائل حياته يقصد أوساط الناس، ومدح شخصا مرة فأعطاه شعيرا. فغضب، وأنشد ما مرّ ذكره في قوله:

يقولون: لم أرخصت شعرك في الورى فقلتُ لهم إذ مات أهل المكارم
أجازى على الشعر الشعير وإنه كثيرٌ إذا استخلصته من بهائم

واشتهر في زمنه بأنه هجاء كبير ويقول العماد- كما أسلفنا- إنه كان مستطرف الهجاء، إذ كان يحاول فيه التدبير إضحاكا لسامعه وجلبا لسروره، كقوله في مغن ضارب على العود لم يعجبه صوته ولا ضربه وتلحينه:

عليّ صوته سوط علينا لا على الفرس
وجملتهُ ضربه ضرب لمدرعٍ ومُتّرسٍ
يقول السامعون له رماه الله بالخرس
وخذ يا رب مهجته إذا غني: (خذى نفسي)

فهو لا يجعل صوته يصك الأسماع فحسب، بل يجعله يكوها كي السياط للخيل، أما ضربه فكأنه ضرب حقيقي يضرب به دروعا وتروسا لا ألحانا تُشجي السامعين

وتطربهم، مما يجعلهم يدعون عليه بالخرس بل بالموت حين يغني، وكان بالصدفة يغني مقطوعة أولها: " خُذِي نَفْسِي ". ويقول لبعض مهجوية:

لك وجه كأنه الـ	بَدْرُ لَكن إذا كسف
وقوام كأنه الـ	غُصن لَكن إذا انقصف
وبنان كأنه الـ	. بحر لَكن إذا نشف
وأب أكذب الأنام	ولكن إذا حلف

وهو في الأبيات الثلاثة الأولى يبدأ بالمدح لكن لا يلبث أن يحموه بل أن يرده عليه هجاء وإقذاعاً شديداً، فهو صاحب وجه كاسف وقوام قصر منقصف وبنان شحيح لا يقطر بأي خير، أما أبوه فكذاب أشر. وكان بدمشق في زمنه طبيب يسمى أبا الحكم تصادف أن وقع ليلاً فانشتر جفن إحدى عينيه، وكان هذا الطبيب كثيراً ما يرثى من يموت فقال عرقله متندراً عليه:

لنا طبيب شاعر أشتر	أراحنا من شخصه الله
ما عاد في صُبحه يوم فتى	إلا وفي باقية رثاه

فهو يدعو عليه بالموت حتى يريح العباد منه، إذ لا يعود ولا يزور أحد صباحاً حتى يكتب له قصيدة رثاء مساءً. فهل وراء ذلك شؤم يتمنى الناس الخلاص منه. وكان يُقذع أحياناً في هجائه، حتى في الموت. ويقول في رثاء بعض خصومه:

لقد حسنت به اليوم المرأى	كما حسنت به أمس الأهاجي
ولكن لج في شتم البرايا	وكان القتلُ عاقبة اللجاج

وهي شماتة تدل على أنه كان عدواني المزاج، وله رثاء لاذع لبعض المجان، يقول فيه إن دنان الخمر وكئوسها وقيانها المغنيات يبكيه بكاء مرا.

أسامة^(١) بن منقذ

هو أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكلبي، من أعلام بني منقذ أصحاب قلعة شيزر إلى شمال من حماة ومن علمائهم وفرسانهم. ولد لأبيه سنة ٤٨٨ وقد عنى بتعليمه وتدريبه على الفروسية وأتقنها سريعا، ولقى - وهو شاب - في صيده أسدا فصرعه. ويقال إن أباه كان رجلا صالحا فترك إمارة القلعة لأخيه سلطان ولم يكن له ولد، فتبنت أسامة وأخذ يعلّمه للإمارة بعده. وكان اسم عماد الدين زنكي قد أخذ في التآلق منذ استيلائه على حلب سنة ٥٢٤ فالتحق هب أسامة وأبلى بلاء حسنا في حروبه ضد حملة الصليبي، حتى إذا أغاروا على شيزر سنة ٥٣٢ عاد إليها مسرعا ودافع عنه دفاعاً مستميتا حتى ارتدوا على أعقابهم خاسئين. وبمقدار فرجه بالنصر كان حزنه على أبيه إذ علم أنه توفي في العام السابق لتلك المعركة. وصمم على المكث في مسقط رأسه لحمايته غير أن عمّه لم يتركه طويلا، فقد أمره هو وإخوته بالرحيل عن القلعة، ففرقوا في البلاد. ومضى أسامة إلى دمشق ولقبه حاكمها معين الدين أنر مدير دولة أولاد طُغتكين لقاء حسنا، وظل الجو بينهما صافيا حتى سنة ٥٣٩ إذ اكفهر الجو ولم يجد أسامة بُدا من مفارقة دمشق. فرحل إلى القاهرة ومعه أمه وزوجه وأبناؤه وأخوه محمد، وكان الخليفة الفاطمي حينئذ الحافظ (٥٣٤ - ٥٤٤ هـ) فأكرمه، أمر هل بإقطاع سنّي عاش به حياة رغدة.

وخلف الحافظ ابنه الظافر (٥٤٤ - ٥٤٩ هـ) واتصل إكرامه وإكرام وزيره العادل بن سلال لأسامة، ويقول المؤرخون إنه لم يف للعادل، فقد أوغر صدر عباس الصنهاجي ابن زوجته عليه فقتله وخلفه على الوزارة. ولم يلبث أن أوغر صدر عباس وابنه نصر على الخليفة الجديد الظافر فقتلاه. وتطورت الأمور فتولّى الفائز بن الظافر

(١) أنظر في أسامة وعشره تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٤٠٠/٢ وعجم الأدياء ١٨٨/٥ و الخريدة (قسم الشام) ٤٩٩/١ و النجوم الزاهرة: الجزئين الخامس والسادس في مواضع متفرقة (انظر الفهرس) والبداية والنهاية لابن كثير ٣٣١/١٢ والسلوك للمقريزي ١٢٥/١ والمختصر في أخبار البشر لأبي الفداء (الطبعة الأولى بالقاهرة) ٢٧/٣ و امرأة الجنان ٤٢٨/٦ وشذرات الذهب ٢٧٩/٤ وديوانه طبع بالقاهرة. وراجع كتابه الاعتبار (نشر جامعة برنستون) وفيه معلومات كثيرة عن سيرته وحياته وطبع له في القاهرة لباب الآداب وكتاب المنازل والديار.

الخلافة وه وصبي يحبو في الخامسة من عمره، وكاتب أهل القصر طلائع بن رزيك الوالي بالصعيد، فقدم في جيش إلى القاهرة، وهرب عباس وابنه نصر وأسامة، وولوا وجوههم إلى الشام. وأسرت أخت الظافر، فكتبت إلى حملة الصليب بعسقلان- وكانوا قد استولوا عليها حديثاً- تعدهم بأموال طائلة إن هم ردوا إلى القاهرة الوزير وابنه نصرا، والتقوا بهم وواقعوهم، فقتل عباس، وُرِد نصر إلى القاهرة، وفرَّ أسامة في نفر معه إلى دمشق. وحاول أسامة أن يوثق صلته بحاكمها الجديد نور الدين الذي استولى عليها في سنة قدومه سنة ٥٤٩، ويبدو أنه كسب حينئذ رضاه، وكاتب طلائع بن رزيك الوزير بمصر ليرسل إليه أسرته، فأرسلها بحرا غير أن سفينتها أصابها عطب في مياه عكا وكانت مع الصليبيين، فنهبوا كل ما كان مع الأسرة من مال ومتاع، وتجشمت الأسرة كثيراً من الصعاب حتى وصلت دمشق وكان لذلك أثر أليم في نفس أسامة.

ونزلت بأسامة ي سنة ٥٥٢ فاجعة أشد هولاً، إذ دمرت الزلازل قلعة شيزر وأتت عليها ونزح عنها أهله وتشتوا في البلاد، وتملكها نور الدين خشية عليها من حملة الصليب، ويبدو أن أسامة كان يأمل أن يرد نور الدين الحصن عليه وعلى أسرته، ولعل ذلك ما جعله يقول فيه:

سلطاننا زواهد والناس قد زهدوا له فكل على الخيرات منكمش
أيامه مثل شهر الصوم طاهرة من المعاصي وفيها الجوع والعطش

أما أن أيام نور الدين البطل المغوار مدوّخ الصليبيين طاهرة فهذا صحيح إلى أقصى حد، وأما أن فيها الجوع والعطش فغير صحيح إذ فيها غنائم لا تحصى أخذت قهراً من حملة الصليب، وفيها غير بلد عربي رُد منهم إلى أهله. وقد شاعر هو نفسه نور الدين في بعض انتصاراته عليهم، وحضر معه حصاره لحصن حارم سنة ٥٥٩ للهجرة. وأدته موجدته- في رأينا- من نور الدين إلى أن ييرح دمشق إلى حصن كيفا بالموصل ويتخذها دار مقام له، وفيها يعكف على جمع ديوانه وتأليف كتبه، حتى إذا استولى صلاح الدين على دمشق سنة ٥٧٠ استدعاه، ولبأه مبتهجا، فأعطاه دارا بدمشق وإقطاعا لمعاشه وفسح له في مجالسه، حتى إذا كانت سنة ٥٨٤ للهجرة لبي نداء ربه عن ستة وتسعين عاما.

ورتب أسامة ديوانه على الموضوعات، فباب للغزل وباب للمديح وباب للشكوى وباب للفخر وباب للوصف إلى غير ذلك من أبواب، ولم يفرد للجهد باباً وكأنه ترفع عنه إباء واحتشاما وحياء. وأهم أبواب شعره باب الفخر، إذ كان فارساً شجاعاً، وشارك في حرب حملة الصليب منذ شبابه دفاعاً عن مسقط رأسه، وجلى في معارك عماد الدين زنكي ضدهم، وكأنه ظل طوال حياته شاهراً سيفه في وجوههم حتى بلغ السبعين، يقول:

لخمس عشرة نازلت الكُماة إلى أن شبت فيها وخير الخيل ما قرحا^(١)
أخوضها كشهاب القذف مبتسما طلق المحيا ووجه الموت قد كلحا^(٢)
بصارمٍ من رآه في قتامٍ وغي أقرى به الهام ظن البرق قد لمحا^(٣)
فسل كُماة الوغي عني لتعلم كم كربٍ كشتُ وكم ضيقٍ بي انفسحا

فهو قد نازل كُماة الحرب أو شجعانها منذ سنته الخامسة عشرة، وظل ينازلهم حتى اشتغل رأسه شيباً لا يهن ولا يضعف بل تشتد قواه كما تشتد قوى الخيل حين يعلو سنّها وتصبح قارحة منتمة سنوات فحولتها. وإنه ليخوض أهوال الحرب كشهاب ساطع باسم الثغر متهلل الوجه وقد كشر الموت عن أنيابه. وإن سيفه ليلمع في غبار الحرب- وهو يحطم به الرعوس حطماً- كبرق يسطع، وما من شجاع إلا وهو يعلم كثرة ما كشف من كرب وهموم في الحرب وكثرة ما انفسح له فيها من مضايق ومآزق. ومن قوله في تتكيله بحملة الصليب في غير موقعة:

كم قد أبدت بسيفي كل مفتخرٍ حامي الحقيقة يوم الجحفل اللجب^(٤)
وكم تركت بني الأفرنج في رُعبٍ فصرتُ أدعى لديهم جالب الرعب
وكم جررت إليهم جحفاً لجباً بالساذيرية والمادذي واليلب^(٥)

(١) الكُماة: الشجعان. قرح الفرس: بلغ الخامسة من عمره.

(٢) طلق المحيا: مستبشر الوجه. كلح: عبس

(٣) قتام وغيّ: غبار حرب. أقرى الهام: أشق الرعوس.

(٤) حامي الحقيقة: حامي الحمى. الجحفل اللجب: الجيش الكثيف كثير الضجيج.

(٥) الساذيرية: الدرع المحكمة النسج. المادذي: السلاح. اليلب: الترس.

وهو يقول إنه كثيرا ما قضى قضاء مبرما على كل شجاع يفخر بشجاعته حاميا
حمى أهله يوم النزال الطاحن. ويقول إنه كثيرا ما أنزل الرعب في قلوب حملة الصليب
حتى سموه- جزعا- جالب الرعب، وكم قاد إليهم جيوشا غفيرة شاكية السلاح تقتلهم
وتسفك دماءهم. ويقول:

سَلْ بي كَمَا الوغي في كل معترك يضيقُ بالنفس فيه صدر ذي الباس
يُنْبئوكُ بأني في مضايقتها ثبت إذا الخوف هز الشاهق الراسي

فهو يجلي في المعارك حامية الوطيس التي تبلغ فيها الروح الخُلقوم ويرى الكماة
فيها الموت نصب أعينهم، فإنه حينئذ يشق الجماجم ويدق الأعناق رابط الجأش ثابت
الجان حتى حين يهز الخوف والفرع الجبال الرواسي من الكماة العتاة.
ولأسامة قصيدة نظمها على لسان نور الدين مفاخر معددا لانتصارات البطل على
حملة الصليب وتمزيقه لصفوفهم وقد بلغت أكثر من تسعين بيتا وفيها يقول:

أبي الله إلا أن يكون لنا الأمر لتحيا بنا الدنيا ويفتخر العصر
جعلنا الجهاد همنا واشتغالنا ولم يُلهنَّا عنه السماعُ ولا الخمر
بنا أيد الإسلام وازداد عزة وذل لنا من بعد عزته الكفر
بنا استرجع الله البلاد وأؤمن الـ عباد فلا خوفٌ عليهم ولا قهر

وحقا كان نور الدين مفخرة للعصر في ذلك قلاع الصليبيين وحصونهم، وبه
استرجع كثير من بلاد الشام وأمن فيها الناس، ووضع المكس أو الضرائب عن التجار
وانتعشت الحياة وازداد الإسلام عزة. ونور الدين- بدون ريب- هو الذي هيا لأصلاح
الدين حكم مصر وانتصاراته المدوية على الصليبيين واسترجاعه القدس الطاهر وتقليمه
لأظافرهم. ويقول أسامة حين أقعدته سنواته السبعون عن الاشتراك في نزال الصليبيين
ووهنت منه رجلاه وقواه، فلم يعد يستطيع ركوب الخيل ليكون له شرف النضال عن
حمى وطنه:

رجلاي والسبعون قد أوهنت قواي عن سعيي إلى الحرب

وكنت إن ثوب داعي الوغى
 لببته بالطعن والضرب (١)
 أشق بالسيف دُجى نفعها
 شق الدياجي مُرسل الشهب (٢)
 أنازل الأقران يُرديهم
 من قبل ضربي هامهم رُعي (٣)

فقد وهن عظمه وضعفت منته، ولكن لا تزال روح قوية، وإنه ليذكر ماضي
 فروسيته المشرف وكيف أنه كان حين يدعو الداعي لحرب يبادر إليها يطعن ويضرب
 يمينا وشمالا يشق الرعوس في مثار النقع وغبار الحرب شق الشهب لحب الظلام فاتكا
 بالأقران، بل إن رعبهم منه ليفتك بهم قبل سيفه فتكا ذريعا.

ابن (٤) عُنِين

هو محمد بن نصر بن الحسين المشهور باسم ابن عُنِين، يرجع بنسبه إلى
 الأنصار، نزل أجداده الأولون الكوفة، وتركها أسرتة إلى زرع في حوران بالشام.
 وهاجر منها أحد أجداده الأريين واستقر في دمشق، وفيها ولد لأبيه سنة ٥٤٩ للهجرة،
 وكان منزله جنوبي الجامع الأموي، فبعد أن حفظ القرآن، أخذ يختلف إلى شيوخه وفي
 مقدمتهم الحافظ أبو القاسم بين عساكر. وكان فطنا ذكيا وسرعان ما جرى الشعر على
 لسانه وهو في السادسة عشرة من عمره. ولا نعرف الأسباب التي جعلته يتجه بشعره في
 بواكيره حياته إلى الهجاء، ربما كان عدوانيا بطبعه، ربما رجع ذلك إلى أنه نشأ في أسرة
 متواضعة، وأن أباه لم ينشأه على حب الخير والشعور بالمروءة والكرامة والرغبة في
 التسامي وطلب المعالي، وقد صرح بذلك في بعض شعره قائلاً فيه:

وجنبني أن أفعل الخير والد ضئيل إذا ما عُد أهل المناسب
 بعيدُ عن الحسنِ قريب من الخنا وضيعُ مساعى الخير جم المعايب
 إذا رمتُ أن أسمو صعوداً إلى العلا غدا عرقه نحو الدنية جاذبي

(١) ثوب: دعا

(٢) لنقع: غبار الحرب

(٣) يرديهم: يهلكهم

(٤) انظر في ابن عُنِين وشعره ابن خلكان ١٤/٥ ومعجم الأدباء ٨١/١٩ والبداية والنهاية لابن كثير ١٣/١٣٨ و النجوم
 الزاهرة ٦/٢٩٣ ومراة الزمان لسبط ابن الجوزي ٨/٢٦٤، ٣٩٨، ٤٦١ ومفرج الكروب لابن واصل ٢/٢٨٦ والشذرات
 ١٤٠/٥ ومقدمة ديوانه لمحققه خليل مردم (نشر صادر ببيروت).

ويبدو أنه أراد بهجائه للناس الانتقام لضعة أسرته وأبيه، ومن العجب أن صلاح الدين الأيوبي البطل المغوار الذي أدلّ حملة الصليب ودفَع جموعهم إلى البحر المتوسط وما وراءه واستولى على بيت المقدس المعظم منهم وغيره. هذا البطل الذي احتل السويداء من أفئدة المسلمين حين استولى على دمشق وابن عنين في العشرين من عمره لم يبادر إلى مدحه، بل على العكس عمد إلى هجائه هجاء مقذعا هو ووزيره القاضي الفاضل وكتابه عماد الدين الأصبهاني وغيرهما من كبار حاشيته ورجال وفيه يقول:

سلطاننا أعرج وكتابه ذو عمش والوزير منحذب

وكان القاضي الفاضل أهدب وكان من خيرة الرجال وصفة الكتاب الشعراء كما كان سيوسا حاذقا بتدبير الدول. وذاعت لابن عنين في دمشق قصيدة طويلة يقال إنها بلغت خمسمائة بيت سماها مقراض الأعراض، وضجّ الناس من لسانه وبهتانه، ورفعوا شكاوهم منه إلى صلاح الدين، فأمر بنفيه عن دمشق، فمضى على وجهه يجوب البلاد من الشام إلى العراق والجزيرة وأذربيجان وخوارزم وخراسان وما وراء النهر وغزنة ودخل الهند. ثم رجل إلى اليمن وحاكمه من قبل صلاح الدين أخوه طغتكين (٥٧٧-٥٩٣ هـ) فوفد عليه، وقدم إلهي مدائحه فلقبه لقاء كريما وخفّ على قلبه فاتخذة نديما، وأخذ يكثر من مديحه وطغتكين يكثر من عطائه، حتى أثرى، وكثر في يده المال، فرأى أن يستثمره، وتحول تاجرا يتردد بعروضه بين اليمن ومصر في العقد التاسع من القرن السادس.

وكان العزيز عثمان بن صلاح الدين ينوب عن أبيه بمصر حتى إذا توفي صلاح الدين سنة ٥٨٩ أصبح العزيز عثمان سلطانها، ونرى ابن عنين يشكو منه لمطالبته بدفع ضريبة عن عروض التجارة التي يحملها إلى مصر، ولا نعرف هل هذه الشكوى كانت في أيام نيابته عن أبيه أو في أيام سلطنته، وهو فيها يهجو بالشح بينما يمدح عمه العزيز طغتكين بالكرم، يقول:

ما كل من يتسمى بالعزيز له فضل ولا كل برق سحبه غدقه^(١)

(١) غدقة: غزيرة المطر.

بين العزيزين بون في فعالهما هناك يعطي وهذا يأخذ الصدقة

وهو هجاء لاذع للعزيز عثمان إذ يجعله - لشدة شحه - شحاذا يأخذ الصدقة. ويبدو أنه ظل بمصر بعد وفاة العزيز طُغتكين سنة ٥٩٣ ومكث بها مدة انعقدت فيها صداقة بينه وبين شعرائها، يقول ابن خلكان: " اتفق في عصره بمصر جماعة من الشعراء المجيدين وكان لهم مجالس يجرى بينهم فيها مفاكهاة ومحاورات يروق سماعها، ودخل في ذلك الوقت شرف الدين بن عنين فاحتفلوا به وعملوا له دعوات، وكانوا يجتمعون على أرغد عيش". وتوفى العزيز عثمان سنة ٥٩٥ وتلوى بعده أخوه أفاضل وتطورت الظروف وتحول ملك صلاح الدين في مصر والشام إلى أخيه الملك العادل، فولّي على مصر ابنه الكامل وعلى دمشق ابنه المعظم عيسى. وحنّ ابن عنين إلى العودة إلى دمشق فأخذ يستعطف العادل أن يعود إليها وأذن له في العودة ولزم ابنه المعظم عيسى (٥٩٧ - ٦٢٤ هـ) يمدحه، وقربه منه واتخذة بأخرة من أيامه وزيراً له، حتى إذا توفى رثاه رثاء حاراً. وأبقى له منزلته ابنه داود (٦٢٤ - ٦٢٦) وخلفه الأشرف موسى فلزم بيته واصطلحت عليه الأمراض، وتوفى سنة ٦٣٠ عن ٨١ عاماً.

والديوان موزع على أبواب المديح والرثاء والحنين إلى دمشق والوقائع والمحاضرات مما يتصل بظروفه والأحداث اليومية، ثم الدعابة والتهكم والسخرية والألغاز والهجاء. وألحق محقق الديوان بتلك الأبواب مستدركا بما عثر عليه من شعر ابن عنين في كتب التاريخ والأدب. وهو في مقدمة شعراء دمش بزمنه إن لم يكن سابقهم المجليّ، إذ كانت ملكته الشعرية خصبة، غير أنه استغلها أكبر استغلال في الهجاء مما جعل صلاح الدين ينفيه - كما مر بنا - عن دمشق، وحتى من أكرموه كان يهجوهم غير مراعاة فيهم إلا ولا ذمة، إذ كن ما يلبث أن يعضّ أيديهم التي امتدت لإكرامه، من ذلك هجاؤه للسلطان العادل الذي فتح له أبواب دمشق، إذ ما لبث أن قال فيه بعد دخولها:

إن سُلطاننا الذي نرتجيه واسع المال ضيق الإنفاق

هو سيف كما يقال ولكن قاطع للرسوم والأرزاق

وكان العادل يلقب سيف الدين، وأنقذه من تشتته وضياعه في البلاد وردّه إلى دمشق حبيبة قلبه ومهوى فؤاده التي طالما تغني بالحنين إليها، ومع ذلك جزاه بالهجاء.

وحقا له فيه مدائح رائعة، ولكن كان ينبغي أن يرد شيطان هجائه عن الإمام بساحته. وأكرمه المعظم عيسى بن العادل صاحب دمشق إكراما إلى أقصى حد حتى جعله نديمه ومؤنسه ووزيرة ومستشاره، ومع ذلك لم ينج من هجائه إذ يقول حين ولاه مع البها ابن أبي اليسر التتوخي أمر الرعية:

أرى ابن عُنين والبها مذ تولىا على الناس ولي الخير عن كل مسلم
فوالله يا عيسى بمن شئت منهما لُعت ولو كنت المسيح بن مريم

وحقا هجا نفسه معه، ولكن هذا لا يعفيه من قسمه له بأنه لعن لتوليته هو وصاحبه. وهجا نفسه في ديوانه غير مرة، وكأنه يعيد لنا الحطيئة شاعر الهجاء القديم وهجاءه لنفسه، وأيضاً فإنه استعار منه - كما مرّ بنا - هجاءه لأبيه. وأهداه طبيب عيون - أو كما كانوا يقولون كحال - خروفاً هزياً جداً فكتب إليه أهجية طويلة يقول فيها:

أتاني خروف ما شككت بأنه حليف هوى قد شفه الهجر والعذل
إذا قام في شمس الظهيرة خلتهُ خيالاً سرى في ظلمة ماله ظل
فناشدته ما تشتهي قال قته وقاسمته ما شفه قال لي الأكل
وظل يراعيها بعين ضعيفة ويُشدها والدمع في الخد منهلُ
أتتُ وحياضُ الموت بيني وبينها وجادتُ بوصلٍ حين لا ينفع الوصل

والبيت الأخير لأعرابي وضعه بدقة في موضعه من القطعة، وقد جعل الخروف الهزيل نضو عشق شفه الهجر واللوم، ويقول كأنه خيال في ظلام ليس له ظل، وهي صورة بديعة ويستحلفه ما يشتهي فيقول قته أو عشب يابس وأحضرها له، فظل يراعيها بعني ذابلة تشك أن تودع الحياة ودموعه منهلة على حدوده، فقد أتته وهو يكاد يلفظ أنفاسه. وجادت عليه بوصل لم يعد ينفعه فروحه في الحلقوم.

ويصور ابن عنين بخيلاً شحيح النفس كان يدعو أصدقاءه مرة كل عام ضجراً متبرماً، متمنياً أن لا تتكرر هذه الدعوة أبداً، ومُدت المائدة وأخذ الأصدقاء يتناولون الطعام، ويصفه ابن عنين حينئذ قائلاً:

عهدي به واليدُ اليمنى يكفُ بها غرب المجامع والأخرى على الكبدِ
يقول للخبز: لا يبعد مداك ولا أخنى عليك الذي أخنى على ألد

وليد آخر نسور لقمان في قصة مشهورة، وهذا الشحيح يستر غرب دمه بيد
ويضع الأخرى على كبده خشية تفتته داعيا لخبزه أن لا يأتي الدهر عليه كما أتى على
ألد. وكان يهاجي رشيد الدين عبد الرحمن النابلسي ويزعم أنه صُفِع وأنه معتاد دائماً
يقول:

تعجّب قوم لصفع الرشيد وذلك ما زال من دابه
رحمّت انكسار قلوب النعال وقد دنسوها بأثوابه
فوالله ما صفعوه بها ولكنهم صفعوها به

وله أهاج كثيرة في القاضي الفاضل وكبار رجال الدولة بدمشق وجها بذة قضاتها
وشيوخها، وهو فيها أو على الأقل في بعضها يفحش إفحاشاً شديداً، مما دفعنا إلى
إخلاء هذا الكتاب منها، لا لفحشها فحسب: بل لأن ما يخلو منها من الفحش أيضاً
إنما هو افتراء وبهتان.

ابن^(١) النحاس

هو فتح الله بن النحاس الحلبي المعروف باسم ابن النحاس اشتهر بطوافه في
البلدان الشامية والمصرية والحجازية، كان جميل الصورة في صباه ومطالع شبابه، ثم
أصيب بمرض بدّل محاسنه وزهده في الحياة، ونراه في شعره يرثي تلك الأيام أسفاً
محزوناً، ويقال إنه تزيي بزي الزهاد ورحل عن بلده، ودخل دمشق فاستقبله أدباؤها
وشعراؤها استقبالا كريماً. وكان لهم مجالس يتطارحون فيها الشعر، وكانوا يجتمعون في
نزّه دمشق، ويتحاورون ويتحدثون ويذكرون كثيراً من الدعابات والفكاهات. وانعقدت
صلة متينة بينه وبين ابن منجك الذي تحدثنا عنه بين شعراء المديح، وله فيه مدائح
كثيرة. ورحل عن دمشق إلى القاهرة فوجد من أدبائها أهلاً ومكاناً طيباً، وهاجر منها

(١) انظر في ابن النحاس وشعره سلافة العصر ٢٧٦ وخلاصة الأثر ٢٥٧/٣ ونفحة الريحانة ٥٠٧/٢ وديوان ابن النحاس
النحاس مطبوع قديماً في بيروت بالمطبعة الأنسية.

إلى مكة، وألقى عصا تسيارة بالمدينة إلى أن توفي سنة ١٠٥٢ للهجرة، ويقول فيه المحبي في كتابه: نفحة الريحانة: "أنا لا أجد عبارة تفي في حقه بالمدح فأرسلت اليراع وما يأتي به على الفتح، وناهيك بشاعر لم يطنّ مثل شعره في آذان الزمان، وساحرٍ إذا أشربت كلماته العقول استغنت عن الكئوس والندمان".

وابن النحاس شاعر مجيد، بالقياس إلى زمنه أيام العثمانيين، وشعره استنفده في المديح، ويكثر في مقدماته من الغزل، وقد يفزع إلى الفخر بمثل قوله:

ألا إن لي نفس الوقور وعفة الـ	قدير وقلبي في المهمات قلبُ
وما كلُّ معسول اللمي يستفزني	ولا كل مطلوب دلي محبب (١)
وأحتملُ المكروه ممن يملني	ولم ألو جيد الود عن ينكب
إذا أنا لم أدفع عن النفس ضيمها	فلا انجاب عنها من دُجا الضيم غيهب
ولا وطئتُ خد الفيافي ركائبي	ولا سال حزن بالمطي وسبب

وهو يقو عن نفسه إنه وقور عفيف قلب يحتال في قوة للأمر، ولا يستثيره جمال المرأة ولا يطلب ما يطلبه الناس، بل يطلب الأمانى الكبار، ويحتمل الأذى ممن ينصرف عنه، ولا ينصرف ممن يُعرض عنه من الأوداء الأصدقاء، ويدعو على نفسه إن لم يدفع الضيم الساقط عليه أن لا ينجاب عنه دجاه المظلم، وأن تهن قواه فلا تطأ الفيافي ركائبه ولا يسيل بهاه حزن من الأرض ولا مفازة. ويقول من قصيدة ثانية:

يا دهر مثلي لا يُقلد	قلُّ عن سنام المجد جنبه
أنا لا أبالي إن رُم	بيت وسب عرضي من أسبه
العين يدميه الذبا	بُ ويُعجز الآساد ذبه
ولتبر يعلوه الترا	بُ وفضله باق ولبه
تكفي فتى العرفان خ	لانا فضائله وكتبه
وارقب خفوقي إن سكد	ت فعاصفي يُرجى مهبه
والبدرُ يشرق في المطالع	بعد ما أخفاه غربه

(١) اللمي: سمرة حسنة في الشفة.

والروض يذبل ثم تُكسى النور والأوراق قُضبه

وهو يقول للدهر إن شيئاً لا يستطيع أن يزعه عن مكانه من سنام المجد، وإنه ليرمى، ولا يهمله ما قد يلقي عليه من أذى السب والشتم، مثله في ذلك مثل العين يدميها الذباب وحتى الأسد لا يستطيع ذبه ولا دفعه ومثل التبر يعلوه التراب وتظل له قيمته ونفاسته. ويفتخر بفضائله ومعارفه، ويقول لخصمه: ترقب حركتي، فإني كعاصف ساكن لا يلبث أن يثور ويندفع وما مثلي إلا كمثل البدر يخفيه مغربه ولا يلبث أن تعم أضواؤه الآفاق، أو كمثل الروض تذبل أشجاره، حتى إذا كان الربيع كسى غصونه الأوراق والأزهار الأرجة. ويقول:

لا أقبل الضيم كيف أقبله؟ والمجدُ يأباه فيّ والحسبُ
والشمس صونا لضوء طلعتها قبل لحاق الظلام تحتجب

يقول إنه لا يقبل الضيم وكيف يقبله ومجد آبائه وعشيرته يستدير من حوله هالة منيرة تحول بينه وبين الرضا بالهوان. وإنه ليصون نفسه وخصالها الكريمة كما تصون الشمس ضوءها، بل إنها لتحتجب قبل أن يلحقها الظلام ويرخي الليل سدوله على الآفاق.

شعراء المرائي والشكوى

المرائي قديمة في الشام منذ عصر فقلما كان يموت خليفة أموي إلا ويرثيه لشعراء من الشام والعراق والحجاز، ويدخل عصر الولاة ومنذ أواخر القرن الثاني تشارك الشام بقوة في الشعر العربي، ولا يلبث أبو تمام الدمشقي أن يحمل راية الشعر وزعامته لا في الشام وحدها بل أيضا في العالم العربي جميعه، وتحتل المرائي بابا كبيرا في ديوانه، ويخلفه تلميذه البحتري المنجي الحلبي المتوفى سنة ٢٨٤ للهجرة وتشغل المرائي حيزا كبيرا في شعره. وولدت في أوائل هذا العصر: عصر الدول والإمارات بكشاجم. وله رثاء في أبيه وأمه، وأروع من رثائه فيهما رثاء أبي فراس لأمه حين جاءه نعيها في أسر الروم، فأحس في عمق بفرجته فيها وهو غائب عنها لا يملك إلا أن يذرف الدموع الحارة. وله مرثية بديعة في أخت له يقول فيها ^(١):

أترعم أنك خدن الوفاء	وقد حجب التراب من قد حجب
فإن كنت تصدق فيما تقول	فمُت قبل موتك مع من تحب
وكنت أفيك إلى أن رمتك	يد الدهر من حيث لا أحتسب
فلا سلمت مقلة لم تسح	ولا بقيت لمة لم تب
ولو رد بالرزء ما تستحق	لما كان لي في حياتي أرب

وهو يتمنى لو غيب التراب مع شقيقته وصنو روحه حبا لها ووفاء، ويأسى لنفسه أنه لم يستطع أن يرد عنها سهام المنية التي أصابتها في الصميم تحت بصره، ولم يعد يملك لها إلا دموعا منهمة ويتمنى أن لا يتوقف انهماؤها، لعلها تشقي غلة نفسه وحرقة فؤاده ويقول لو أن الرزء فيها يرد إلى أخته الحياة لما كان له في حياته أرب ولقددم روحه فداء لها.

ولأبي العلاء مرثية رائعة لأمه، وكان قد بلغه نعيها وهو في طريقه إليها من العراق، ويقول في مطلعها انه سمع بداهية أصمت أذنه وصكت سمعه، ويأسى أن

(١) الديوان ١/٢: ٤.

تتقدمه إلى الموت، ويُعظم أن يرثيها بلفظ يمر بلسانه ويسلك مسالك الطعام، ويقول إن ألفاظ رثائه تحطم نواجذ أضراره فضلا عن مقادم أسنانه، وينشد (١):

ومن لي أن أصوغ الشهب شعرا فألبس قبرها سمطي نظام
مضت وقد اكتملت وخلت أني رضيع ما بلغت مدى الفطام
فيا ركب المنون أما رسول يبلغ روحها أرج السلام
ذكياً يُصحب الكافور منه بمثل المسك مفضوض الختام

وهو يكبرها عن أن يرثيها بألفاظ، إذ هي جديرة بأن يصوغ لها النجوم الساطعة عقود رثاء تزيد جدتها الطاهر، ويحس في عمق - وهو في سن الكهولة - كأن السنوات الطويلة التي فصلته عن صدر أمه من القصر ليست إلا أياما قصيرة إذ لا يزال يشعر كأنه رضيع فقد أمه، وهو في حاجة شديدة إليها، رضيع ضاع أي ضياع. ويتوسل إلى قوافل المنون التي تسرى في ليل الأبدية أن تحمل منه إلى أمه سلاما ذكيا عطرا ينتشر أريجها من حولها ويسطع سطوعا. ويقول الماهر الدمشقي المتوفى سنة ٤٥٢ في مرثية له (٢):

برغمي أن أعنف فيك دهرا قليلا فكره بمعنفيه
وأن أرعى النجوم ولست فيها وأن أطا التراب وأنت فيه

ويقول الباخري تعليقا على البيتين: " هذا أرق ما يكون في المرثى، إذ يكاد يفجر عيون الأحجار، فتسيل بمدود الأنهار، بل بأموج البحار".

وتتشب الحروب الصليبية، وفي بعض حملات أبق أمير دمشق على حملة الصليب سنة ٥٠١ يخون الحظ قائدا من قواده يسمى قول بن عثمان، فيقتله الصليبيون، ويبكيه ابن الخياط شاعر دمشق بمثل قوله (٣):

يالرجال لنازل لم يحتسب ولحادث ما كان بالمتوقع

(١) سقط الزند ٤/١٤٥٩

(٢) دمية القصر ١/١٥٨

(٣) ديوان ابن الخياط ص ٢١٣ و الخريدة بداية شعراء الشام ص ٢٠٩.

تالله ما جار الزمان ولا اعتدى بأشد من هذا المصاب وأوجع
ياقول قوله مكمد مستنزر ماء الشئون له ونار الأضلع
أشكو إلى الأيام فيك رزيتي لو تسمع الأيام شكوى موجع
صُل بعدها يا دهر أوفاً فاكفف وخذ من شئت يا صرف المنية أودع

وهي مرثية رائعة تمتلئ بأبيات تصور لوعات الدمشقيين في هذا البطل وكرانتهم
وفجيعتهم التي لا تماثلها فجيعة. وإن الشاعر ليستقل الدموع الغزار فيه وما وراءها من
نار موقدة في الصدر كمداً عليه، وليُنزل الدهر بالدمشقيين بعدها فواجع أو فليكف،
فلن يصيبهم مثلها فاجعة أو كارثة.

وتوفى نور الدين محمود سنة ٥٧٠ فاهتزت الشام لفقده هزة شدة، وفي رثائه يقول
العماد الأصبهاني في إحدى مرثياته^(١):

يا ملكاً أيامه لم تنزل لفضله فاضلة فاخرة
غاصت بحار الجود منذ عُيبت أنملك الفائضة الزاخرة
ملكك دنياك وخلفتها وسرت حتى تملك الآخرة

وتوفى بعده صلاح الدين بدمشق، وكانت لوفاته أوائل سنة ٥٨٩ رنة حزن عميقة
في جميع القلوب والديار لكثرة فتوحاته، وقد أزاح الصليبيين عن صدر الشام وافتتح
بيت المقدس ولم يبق معهم إلا عكا وأنطاكية وبعض حصون وبلدان قليلة، ويكاه
الشعراء وفي مقدمتهم عماد الدين الأصبهاني، وله فيه مرثية بدیعة ختم بها كتابه البرق
الشامي، وفيها يقول^(٢):

أين الذي شرف الزمان بفضله وسمت على الفضلاء تشريفاته
لا تحسبوه مات شخصاً واحداً قد عمّ كل العالمين مماته
لو كان في عصر النبي لأنزلت في ذكره من ذكره آياته
يا راعياً للدين حني تمكنت منه الذئاب وأسلمته رعاته

(١) الروضتين لأبي الشامة (طبع مطبعة وادي النيل بالقاهرة) ٢٢٨/١.

(٢) انظر نهاية كتاب البرق الشامي للعماد والروضتين ٢١٥/٢ و النجوم الزاهرة ٦٠/٦.

فعلى صلاح الدين يوسف دائماً رضوان رب العرش بل صلواته

وحقا حامي صلح الدين عن الإسلام حماية هائلة، عرضنا لها في حديثنا عن السياسة بالشام ومصر، حماية جعلته في الذروة من أبطال العرب الفاتحين، مع ما عمره من المدارس والمساجد في كل بلد بمصر والشام، ومع كثرة ما وقفه عليهما من أموال، ومع دولته الواسعة لم يخلف ملكا ولا دارا ولا بستانا ولا مزرعة، إنما خلف بطولة أحنى لها حملة الصليب رءوسهم.

ولا يكاد يتوفى حاكم طوال هذا العصر ولا وزير ولا عالم ولا قاض إلا ويرثيه الشعراء، من ذلك قول الشهاب محمود ابن صصري قاضي دمشق لأكثر من عشرين عاما المتوفى سنة ٧٢٣ للهجرة^(١):

قاضي القضاة ومنن حوى رتبا سمت عن أن تسام سنا وبزت من سعى

شيخ الشيوخ العارفين ومن رقى رُتب السلوك تعبدا وتورعا

حاوى العلوم بما تفرق في الورى إلا الذي منها إليه تجمعا

وطبيعي أن يصفه بالتقوى والورع والعلوم الشرعية والفقهاء بها فقها دقيقا. ويقولون إنه كان يجمع بين الحسنين: المعرفة بالمنقول والبراعة في المعقول أو ما يحتاج إلى عقل وفهم وقياس وبصيرة. ويلقانا رثاء كثير أيام العثمانيين، من ذلك قول أحمد بن محمد الحسن الحلبى المتوفى سنة ١٠٥٦ في رثاء أخيه^(٢):

رُزء ألم وحسرة تتوالى ومصيبة قد جذت الآمالا

وفراقُ إلف إن أردت تصبرا عنه أردت من الزمان محالا

كنا كغصنى دوحة قطع الردى منها الأغصن الأربط الميالا

أو كالبيدين لذات شخص واحد كان اليمين لها وكنت شمالا

وكان وتر الشكوى من الدهر والممدوحين والناس مشدود في أحوال كثيرة إلى قيثارات الشعراء يلحنون عليه نوائب الدهر وتغافل الممدوحين وبؤس حظوظهم في

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٢٢/٩.

(٢) نفحة الريحانة للمحبي ٥٣٩٨/٢.

دنياهم وما يتجرعون من صاب الدنيا وعلقمها المرير، وما يبيلون في الناس من الطمع
والحقد والأنانية مما يوهي العلاقات حتى بين الأقرباء، ويملاً النفوس شقاء وعناء
والقلوب حسرات ولوعات، من ذلك قول أبي فراس^(١):

أراني وقومي فرقتنا مذاهب وإن جمعتنا في الأصول المناسب
فأقصاهم أقصاهم من مساءتي وأقربهم مما كرهت الأقارب
غريب وأهلي حيثما كرّ ناظري وحيد وحولي من رجالي عصائب
وأعظم أعداء الرجال ثقاتها وأهون من عاديته من تحارب

وهو يصور المحنة في الناس حوله، فهم جميعاً قومه يرجعون إلى أصل واحد
ونسب واحد، وأقربهم منه لا يحبون له الخير، ويحبه له البعداء، مما يجعله يشعر في
عمق بالغرابة بين أهله وذويه وعصاباتة، ويهوله ذلك ويقلقه ويفزع. وإنه ليوغل في
فهم الناس فيشعر بغير قليل من قلق النفس وضيق الصدر، فإن من يصادقك إنما
يصادقك على الخداع، وهو لذلك ليس صديقاً بل هو أعظم أعدائك لأنك تأمنه وتجعله
محل ثقتك، وهو لا يريد لك خيراً بل يريد لك الشر والأذى، وهو لذلك أعدى أعدائك،
أما العدو الحقيقي فأنت تعالنه العداوة وتجاهرة والخصومة، فلن يصيبك منه أذى لأنك
محترس منه دائماً متق شره وخيانتة وغدره. ويخاطب أبو العلاء الدهر بقوله^(٢):

يا دهر يا منجز إبعاده ومخلف المأمول من وعده
أي جديد لك لم تبله وأي أقرانك لم ترده
تستأثر العقبان في جوها وتنزل الأعصم من فنده^(٣)
إن زمني برزاياه لي صيرني أمرح في قده^(٤)
أفضل ما في النفس يغتالها فنستعيز الله من جنده
ورب ظمآن إلى مورد

(١) ديوان أبي فراس ٢٠/٢.

(٢) سقط الزند ١٠١٢/٢.

(٣) الأعصم: الوعل، الفند: قمة الجبل.

(٤) القد: ما يُقَد من الجلد ويشد به الأسير.

وهو يشكو من الدهر وأنه ينجز دائماً الإيعاد والإنذار بالشرور والخطوب، ويخلف دائماً الوعد بالخيرات والطيبات، وأنه ليأتي دائماً على كل جديد وكل قرن يدعى أنه يماثله في القوة أو الشجاعة، فالكل أسراه: العقبان في أجوائها العليا والعصم أو الوعول في أعالي الجبال، فلا أحد ينجو من صولته. ويقول إنه ألف رزاياه ونكباته حتى صارت قداً أو قيداً له ولحياته، وصار من طول ألفته لها يستحبها ويمرح فيها. ويعجب أن يكون أفضل ما في النفس من حواس البصر والسمع وغيرهما يغتاله أو يهلكه ما سُلط عليه من آفات الهوى، ويجعلها كأنها جنود الله إذ تنتقم له ممن الإنسان بسوء سلوكه وأعماله. وهو لذلك يستعيز من شرها، ويقول رب ظامئ إلى مورد يريد أن ينهل منه، فيكون فيه هلاكه؟ ويقول أسامه بن منقذ^(١):

لم حتى كرهت صحبة ظلي	حذرتني تجاربي صحبة العا
قلت مالي لدفعه غير خلي	ليس فيهم خل إذا ناب خطب
ولكنهم عدى للمقل	كلهم يبذل الوداد لدى اليسر
راحة اليأس من حذار ودل	فاعتزلهم ففي انفرادك منهم

وقد بلغ أسامة من ابتلائه للناس واختبارهم أن أصبح يمقتهم ويمقت كل ما في العالم حتى ظله يكره أن يصحبه خوفاً أن يكون فيها ما في الناس من عدم الوفاء وخيانة الصحبة. ويقول إنه ليس في الناس خل صادق العهد في النعماء والبأساء، بل إذا نابت ضراء لم يسعفك ولم يساعدك، إنما يعرفك في اليسر، أما في العسر فلا يودك ولا يعرف لك طولاً ولا فضلك ولا يسدُّ لك ثلماً ولا يقدم لك عونان، فاعتزل الناس وياأس من أن يردوا لك معروفاً أو جميلاً تعش آمناً عزيزاً.

ويقول ابن عَنِين في التشوق إلى دمشق بعد أن ظل منفياً عنها طويلاً شاكياً محزوناً لغربته وما لقي فيها من ضنك العيش بعد أن طوف في العراق وإيران وخراسان والهند واليمن^(٢):

فسقى دمشق وواديها والحمى متواصل الإرعاد منقصم العرى

(١) الخريدة (قسم الشام) ٥٢٥/١.

(٢) ديوان ابن عَنِين ص ٤.

فارتقتها لا عن رضى وهجرتها
 لا عن قلى ورحلت لا متخيراً
 أسعى لرزق في البلاد مشتت
 ومن العجائب أن يكون مقتراً
 لا عيشتي تصفو ولا رسم الهوى
 يعفو ولا جفنى يصافحه الكرى

فهو يدعو لدمشق- وكان يكثر من الحنين إليها- أن يسقيها سحب متواصل
 الإرعاد أو الإمطار، منقصم العرى واهيه يهطل مدرارا. ويقول إنه برغمه فارقها قسرا،
 وهو إنما فراقها لهجوه أهلها وإفحاشه في هجوه. ويقول إنه جاب البلاد يسعى لرزقه
 فكان لا يصيب منه إلا الكفاف وإلا ما يسدّ رمقه، فرزقه دائماً مقتراً أو قليل، وعيشته
 دائماً نكدة، وهواه معلق دائماً بدمشق ودائماً مسهد لا يلم بجفونه الكرى أو النوم لما
 ملكت عليه من شغاف قلبه.

وكان شعراء الشام وأدباؤه كثيرا ما ينزلون القاهرة في عهد الأيوبيين والمماليك
 ويحنّون إلى الشام وبلدانه ورياضها الفيحاء شاكين من الغربة وأن عيونهم لا تكتحل
 بمنظر وطنهم ومشاهده الجميلة، فضلا عن رؤية الأهل والأصدقاء. ونزل القاهرة ابن
 حجة الحموي صاحب خزانة الأدب المتوفى سنة ٨٣٧ وكان أحد ندماء السلطان المؤيد
 وولي عدة وظائف لعهد، ويقول متشوقا إلى بلده حماة شاكيا غربته وطول فراقه لأهله
 (١):

يا ساكني مغني حماة وحقكم
 من بعدكم ما دقت عيشا طيبا
 أرض رضعت بها تُدى شبيبي
 ومزجت لذاتي بكاسات الصبا
 وقد التفت إليك يا دهري بطو
 ل تعتبي ويحقّ لي أن أعتبا
 قررت لي طول الشتات وظيفه
 وجعلت دمعي في الخدود مرتباً

وهو يشكو من غربته عن ملاعب صباه وشبابه وديار أحبائه في حماة مسقط
 رأسه، ويعاتب الدهر الذي قضى عليه بفراقها وطول تشته بعيدا عن قرة عينه، وأنه
 ليبيها بدموع غزار. ولذلك عاد إلى حماة بمجرد أن توفى السلطان المؤيد سنة ٨٢٣
 للهجرة.

وتظن الشكوى من الزمان والناس طوال العصر، ومرت بنا ترجمة لحسين بن
الجزري أيام العثمانيين، وله يشكو شكوى مرة من الناس منشدا^(١):

قد صرت أحترز الأنام وغدرهم إن الطبيب يخاف مس الداء
وقطعت باليأس الرجاء لديهم واليأس يجده أنف كل رجاء
ولطالما أصفيت قبلك خلتي من لا أراه موافقا لإخالي
وبلوت منه وده فرأيتَه مثلونا كتلون الحرباء

لقد جرب الناس طويلا فرآهم غادرين ماكرين لا يصونون عهدا ولا يحفظون ودا،
فئ منهم يأسا لا يداخله أي رجاء، يأسا لا أمل معه في وفاء ولا ما يشبه الوفاء، فقد
طالت تجربته وطال اختباراه ورجع دائما خائبا بل رجح شاعرا بمرارة، لرؤيته الصديق
وقد تلون ألوانا كألوان الحرباء، إذ تتلون في ساعات النهار ألوانا مختلفة. فاتخذ منها
مثلا لتلونه. ونقف قليلا بإزاء نفر من شعراء الشكوى والرثاء.

ابن سنان^(٢) الخفاجي

هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي تلميذ أبي
العلاء المرعي، وكان يتشيع وأنشدنا له في حديثنا عن شعراء التشيع شعرا شيعيا، ولا
نعرف تاريخ ميلاده. ويبدو أنه أحب خوض معان السياسة إذ نراه في حاشية محمود
بن نصر بن صالح حين صار إليه أمر حلب سنة ٤٥٢ وقد بعث به رسولا إلى
صاحب القسطنطينية ملك الروم يستجد به على عمه عطية بن صالح، وظل عندهم
مدة وكتب إلى أهل حلب قصيدته المعروفة:

هذا كتابي عن كمال سلامة عندي وحالٍ شرحها في الجملة
هم وإقتار وعمر ذاهب وِفراق أوطان وبعُد أحبه

(١) ربحانة الألبا ١/١٢٤٠ .

(٢) انظر في ابن سنان الخفاجي وشعره زبدة لحلب من تاريخ حلب لابن العديم، الجزعين الأول والثاني (انظر الفهرس) و
فوات الوفيات ٤٨٩/١ النجوم الزاهرة ٩٦/٥ وكتابتنا البلاغة: تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ١٥٢ . وديوانه مطبوع
بالمطبعة الأنسية ببيروت.

وعاد إلى حلب في عهد أميرها مثال بن صالح سنة ٤٥٣ ولم يلبث أن توفي وخلفه أخوه عطية واستولى عليها من ابن أخيه محمود بن نصر سنة ٤٥٤ ورأى أن يولي في كل قلعة من قلاع إماراته حليبا بحيث تكون ذريته وأبناؤه تحت يده. وطلب من وزيره ابن أبي الثريا أن يختار له من يوليه " عزاز " فقال: لا أجد لذلك إلا أبا محمد بن سنان الخفاجي وكان أبو نصر بن النحاس حاضرا فصوّب الرأي فيه، فأحضره محمود، وولاه قلعة عزاز بعد أن امتنع وأخيرا أجاب. وبعد سنوات خشيه ابن سنان على نفسه واستوحش منه، فاستدعاه محمود مرارا إلى حلب وابن سنان يتعلل عليه ولا يحضر، وكان أبو نصر بن النحاس صديقه فكان يكتب إليه يحذره. ومع ذلك اضطر - بأمر محمود- أن يحمل إليه طعاما مسموما وكان ذلك سبب موت ابن سنان سنة ٤٦٦ ويقال إنه لما أحسّ بالموت أنشد.

خف من أمنت ولا تركز إلى أحد فما نصحتك إلا بعد تجريب

وكان مثقفا ثقافة أدبية وبلاغية علمية كما يتبين من وضعه لكتاب سر الفصاحة، وهو كتاب نفيس، وديوانه مطبوع قديما، ويكثر الرثاء فيه وهو يفتتحه بمرثية في الكاتب علي بن محمد بن عيسى العمري، وكان عطية بن صالح يضطغن عليه لوقوفه مع محمود بن نصر في حصاره لحلب فقتله وصلبه، وفي رثاء ابن سنان له يقول:

ومعدّل جار على غلوائه	يروى حديث نداء عن أعدائه
عجلت عليه يد الحمام وعوده	ريان من خمر الشباب ومائه
عجبا لحد السيف كيف أصابه	ومضاؤه في الروع دون مضائه
ولمصعب ملأ الزمان هديره	قادوه بعد شماسه وإبائه
إن يرفعون فقد غنوا بعلائه	أو يشهروه فقد كفوا بثنائيه

وابن سنان يؤبن صديقه تأبيننا حزينا قائلا: إنه كان بحرا فياضا في الجود وطالما كان الناس يلومونه ويروون أحاديث كرمه الذي شهد به أعداؤه. ويقول إن الموت اختطفه شابا غضا نضرا، ويعجب كيف أصابه السيف وعزمه في الحرب وسفك الدماء أقوى من عزمه. وقد كان صعب القيادة يهدر هدير الفحول ويزر زئير الأسود. ويقول

إن كانوا قد رفعوه في الصلب، فقد أغناهم علاؤه في السماكين، وإن كانوا قد شهروا به
فقد امتلأت الدنيا بالثناء عليه.

وقال يرثى جماعة من أهله وأصدقائه:

أيتها الظاعنون لا زال للغيث	روح عليكم وبكور
لست أرضى بالدمع فيكم فهل يم	لك ري البحور إلا البحور
قد رأينا دياركم وعليها	أثر من عفاتكم مهجور
عرصات كأنهن ليلاً	فارقتها عند الكمال البدور
بان ذل الأسى عليها فللغيد	ث بكاء وللنسيم زفير
يا نجوم العلا غربتم وما في الليل	من بعدكم نجوم تغور

وهو يدعو لأجداتهم أن تظل تمطرها الحسب في البكور والرواح بل حري أن تروح
البحور من فيها من بحور الكرم. ويقل إنه مرّ بالديار فرأى آثار العفاة أو طلاب النوال
قد هُجرت منذ مات أصحابها، وقد أظلمت عرصات وساحاتها بمغيب بدورها، وبدا ذل
الأسى والحزن عليها والسحب تبك بدمع مدرار، وللرياح زفير وشهيق. ويقول لقد غربت
نجومكم وما أظن بعدها في الليل نجوم تغور في سماء المجد والعلاء. وقال يرثى
والدته حين توفيت بعد قدومها من حج بيت الله:

أبكيت لو نهضت بحقك أدمع	وأقول لو أن النوائب تسمع
لا يغبطن على البقاء مرزاً	إن المودع إلفه لموعد
قبحاً ليومك فالنوائب بعده	جل وكل رزية لا تفجع (١)
لو كان ينفعني السلو نبذته	أسفاً عليك فكيف إذ لا ينفع
عجباً لمن يبقى ذخائر ماله	ويظل يحفظهن وهو مضيع
ولغافل ويرى بكل ثنية	ملقى له بطن الصفائح مضجع (٢)
يا قبر فيك الصالحات دفيئة	أفما تضيق بهن أو تتصدع

(١) جل: ياتي بمعنى عظيم وبمعنى صغير حقير فاللفظة من أفاظ الأضداد.

(٢) الثنية: الطريق والعطفة فيه. الصفائح جمع صفيحة وهي العريض من الحجارة والألواح.

وهو يقول إن أي دموع له لا تفي بحقوق أمه عليه وأي أنين له لا تسمعه النوائب، ويقول إ، أحد لا يغبط على بقاءه، فما تلبث رحي الموت أن تطحن الباقيين المودعين. وما أقبح اليوم الذي سمعه فيه رزه أمه. فالنوائب بعده صغيرة والرزايا لا تفجعه، ولو ينفعه السلو لسلا، ولكنه لا ينفع أي نفع. ويعجب لمن يجمع المال وعمّا قليل يضيع، وللغافل عن الموت وفي كل عطفة بطريق من طرقه مضجع معد له: حفرة وصفائحها من الحجارة. ويلتفت إلى قبر أمه ويعجب أنه لا يتصدع وفيه هذه الأم الكريمة. وفي ديون ابن سنان وراء ذلك مدائح وغزليات وفيه عظات بديعة.

الغزي (١)

هو إبراهيم بن يحيى بن عثمان الكلبى الغزى، ولد بغزّة في فلسطين سنة ٤٤١ للهجرة وبها نشأ وتعلم، وسال الشعر على لسانه، حتى إذا بلغ من عمره أربعين عاما دخل دمشق وسمع من شيوخها، ثم رحل إلى بغداد أقام بها في المدرسة النظامية سنن كثيرة، ومدح ورثى غير مدرس، ثم مضى إلى إيران وخراسان وامتد بهما جماعة من الحكام والرؤساء. ويقول العماد الأصبهاني في الخريدة. جاب البلاد وتغرب، وأكثر التنقل والحركة وتغلغل في أقطار كرمان بفارس وأقطار خراسان. ومن مداحه ناصر الدين مكرم بن العلاء وزير كرمان، وعماد الدين طاهر قاضي القضاة بشيراز، ثم أوغل شرقا متنقلا بين الحكام والقضاة والوزراء إلى أن توفى سنة ٥٢٤ بين مرو وبلخ بخراسان، ونقل جثمانه إلى بلخ ودُفن بها عن ثلاثة وثمانين عاما.

وكان شاعرا بارعا وأكثر شعره في المديح. وله غزل بديع أنشدنا منه قطعة في حديثنا عن شعراء الغزل، ويبث في أشعاره شكوى كثيرة، إذ كان يحس دائما بغرته وأنه لا يأخذ من الدنيا ما يأمله. شاعرا بأن سوق الآداب كسدت وأن الأجواد المؤمنين قلوا في البلاد، وفي ذلك يقول:

قالوا هجرت الشعر؟ قلت ضرورة باب الدواعي والبواعث مُغلق

خلت الديار فلا كريم يرتجى منه النوال ولا مليح يُعشق

ومن العجائب أنه لا يُشترى ويُخان فيه - مع الكساد - ويُسرق

(١) انظر في الغزي وشعر الخريدة (قسم الشام) ٣/١ وما بعدها وابن خلكان ٥٧/١ و النجوم الزاهرة ٢٣٥/٥.

وهو لا يشكو من كساد الشعر فحسب. بل يشكو أيضا من أنه يسرق، وباب السرقات الشعرية في النقد العربي باب واسع. ويقول العماد تعليقا على هذه الأبيات: " الغزي حسن المغزى وما يعزّ من المعاني إلا إليه عزي، يُعنى بالمعنى ويحكم منه المبني، ويودعه اللفظ إيداع الدرّ الصدف، والبدر السدّف" ويورد طائفة من روائع أبياته منها قوله:

إني لأشكو خطوباً لا أعينها ليبرا الناس من لومي ومن عدلي
كالشمع يبكي ولا يُدري أعبرته من صحبة النار أم من فرقة العسل

فخطوبه كثيرة بحيث لا يستطيع أن يعين منها خطبا دون خطب ولا أن يعلل لخطب دون خطب، فمثله كالشمع لا يعرف هل يبكي من فرقة الرحيق أو من صحبة الحريق. ويقول شاكيا ضجرا من الأيام:

حملنا من الأيام ما لا نُطيقه كما حمل العظم الكسير العصائب
وليلٍ رجونا أن يدب عذاره فما اختط حتى صار بالفجر شائبا
فلا تحمد الأيام فيما تُقيده فما كان منها كاسيا كان سالبا

والصور في الأبيات بديعة، فقد حمل من الأيام خطوبا جعلته أشبه ما يكون بعظم كسير شُدت عليه العصائب وهو يتضور ألما، ويصور قصر الليل فما اختط عذاره الأسود حتى أسرع إليه الشيب. ويقول لا تحمد الأيام فيما تحمله إليك من نفع فإنها تنفت فيه سمومها، وكل ما تظنه منها كاسيا يسلبك الكساء المظنون، فإذا بك تعرى حرمانا وابتئاسا. ويقول:

الحظ من جوهر الأشياء سله ولا تسأل من الله قدا زانه الهيف
فالقوس في قبضة الرامي لعزتها والسهم من هونه يرمى به الهدف
لم يبق لي زمني شيئا أسر به فالحمد لله لافوز ولا أسف
عرى أكابره من ثوب محمدٍ فالقوم في السابغات اللبس الكُشف
لم يقنعوا بحجاب البُخل فاحتجبا كما غلا بعد سوء الكيلة الحشف
وإن جرى غلط منه بمكرمة فبيضة العقر لا يرجى لها خلف

أعجب بهم قط في الآراء ما اتفقوا على صوابٍ وفي التقصير ما اختلفوا

فهو يشكو حظه التعس وأن الإنسان حري أن يطلبه من ربه لا أن يسأل حبا وما يشبه الحب فالحظ مدار الحياة وقطبها، يرفع الأدنى ويخفض الأعلى، وما أشبه الغزي بقوس عزيز في قبضة الرامي تصوب منه السهام الهيئة فتصيب الهدف، ألا ما أتعس الحياة! ويقول إن الزمن قضى على كل ما يدخل على نفسه السرور، فلم يعد هناك شئ ينتظر أن يظفر به أو يأسف على ضياعه. ويقول إن الزمن عرّى أكابره من ثياب المحامد، وهم إن بدوا كاسين فحقيقتهم عارون مجردون من كل محمدة، وكأنما لم يكفهم حجاب البخل فاحتجوا عن الناس جامعين بين سوءتين، كما يجمع بائع التمر بين حشفه أو أردئه وسوء كيله أو ميزانه. وإن غلط أحدهم وجاء بشيء كان ذلك بيضة العُقر التي لا تبيض الدجاجة بعدها. ومن عجب أنم لا يتفقون في الرأى على شئ سوى ما كان من بخلهم وشح نفوسهم، يقول:

وجف الناس حتى لو بكينا تعذر ما تبل به الجفون
فما يندى لممدوح بنان ولا يندى لمهجو جبين

فالناس قد جفوا بعد إيناع وورد وريحان حتى لو بكى الباكون ما وجدوا دموعا تبلّ جفونهم، إذ لم يعد هناك ممدوح ينادى بنانه، ويغدق على الناس نواله، وأيضاً لم يعد مهجو بخيل يندى جبينه خجلا وكسوفاً. ويقول:

حبلُ المنى مثل حبل الشمس متصلا يرى وإن كان عند اللمس مبتوتا
فلا تقل ليت صرف الدهر ساعدني فإن في ليت أوماً يقطع الليتا^(١)

والصورة في البيت الأول بديعة، فحبل المنى كحبل الشمس مبتوت غير موصول، فلا تقل أحداث الدهر ساعدتني فإن في ليت أوماً أو عطش شديداً دون ربه انبتات الليت أو صفحة العنق. فداع المنى والتمني فإنهما يتعبان ولا يثمران شيئاً. ووراء هذه الشكوى من الزمن والناس في شعر الغزي والمدائح وغزليات - كما قلنا - رائعة، وهو

(١) أوما: عطشا شديداً. الليت: صفحة العنق.

ديوان كبير جمعه بنفسه في نحو خمسة آلاف بيت، ومنه نسخ كثيرة في مكتبات العالم.

obeyikahna.com

فتيان^(١) الشاغوري

هو فتیان بن علي الأسدي الشاغوري ولد في أوائل العقد الرابع من القرن السادس الهجري ببانياس على ساحل حمص و انتقل به أبوه صبيبا إلى دمشق، وسكن الشاغور إحدى ضواحيها حينئذ وهي الآن من أحيائها، وألحقه بكتاب حفظ فيه القرآن، حتى إذا أتم حفظه أكبّ - مثل لداته - على دروس الشيوخ اللغوية والشرعية في الجامع الأموي، وحين أتقن العربية وعلومها فكر في أن يصبح معلما لها، يعلمها الناشئة ويديريهم عليها. واختار قرية الزيداني بالقرب من دمشق مقاما له لجمال الطبيعة فيها، فسكنها واتخذ لنفسه كتابا يعلم فيه الناشئة، وله في هذه القرية أشعار بديعة تصور مفاتن الطبيعة فيها. ومنذ أخذ صلاح الدين في أواسط العقد الثامن من القرن بواقع الصليبيين ويسحقهم بجيشه المظفر نراه مثل غيره من شعراء الشام يشيد به وبانتصاراته في مدائح كثيرة. وكان صلاح الدين قد أعطى ابنه الأفضل نور الدين دمشق منذ سنة ٥٨٢ وظل بها بعد وفاة أبيه حتى سنة ٥٩٢، واتخذ الأفضل مودود بن المبارك - وهو أخو عز الدين فرخشاه ابن عم الأفضل لأمه - شحنة دمشق أو بعبارة أخرى ضابطا لشئونها ومصرفاً لها. ويلتحق فتیان بخدمة مودود. ويقول مترجموه إنه اتخذ له حلقة لتعليم العربية بالجامع الأموي. ونظن ظنا أنه ابتدأها في أثناء تلك الخدمة أي منذ العقد التاسع من القرن السادس، إن لم يكن بعد هذا التاريخ.

وكان فتیان يمدح بجانب صلاح الدين بعض قواده وكاتبه عماد الدين الأصبهاني والأفضل نور الدين وأخاه غازي صاحب حلب منذ أعطاها له أبوه سنة ٥٨٢ حتى وفاته سنة ٦١٣. أما مودود بن المبارك فله فيه أكثر من عشرين قصيدة، ويقول مترجموه إنه عهد إليه - فيما عهد بتعليم أولاده الخط والعربية. ونراه حين أصبح العادل مالك زمام الدولة الأيوبية بعد أخيه صلاح الدين يخصه ببعض مدائحه ويكثر من مديح وزيره المصري صفي الدين بن شكر، ويبدو أنه كان يرسل إليه بمدائحه، لأنه لم يغادر الشام طوال حياته. وكان العادل قد جعل دمشق لابنه المعظم عيسى، وله فيه عشر مدائح، كما أعطى العادل ابنه الأشرف موسى الرها والجزيرة وله فيه نحو خمس

(١) انظر في فتیان الشاغوري وشعره الخريدة (قسم الشام) ٢٤٧/١ وابن خلكان ٢٤/٤ و النجوم الزاهرة ٢٧٤/٦ ومطالع البدر للغزولي ٢٨/١ والشذرات ٦٣/٣. وديوانه طبعة مجمع اللغة العربية بدمشق بتحقيق أحمد الجندي وتقديمه.

عشرة مدحة. ومدح كثيرين من البيت الأيوبي في مقدمتهم صاحب حماة تقي الدين عمر (٥٧٤-٥٨٧ هـ) أعطاهما له عمه صلاح الدين، مدح صاحب بعلبك فروخ شاه (٥٧٥-٥٧٨ هـ) وابنه بهرام شاه (٥٧٨-٦٢٧ هـ). وعلى هذا النحو ظل يقدم مدائحه للأيوبيين حتى وفاته بدمشق سنة ٦١٥. وقد أنشدنا له في حديثنا عن شعراء التشيع أشعارا تدل بوضوح على تشيعه. وطبيعي - وهو شاعر مدح كبير - أن تكون له مرثية لمن لبي نداء ربه من ممدوحيه، وخاصة من كان وثيق الصلة بهم، وكذلك لكبار رجال زمنه وشيوخه وعلمائه الأعلام. ومن أروع مرثياته لشيخه الحافظ المؤرخ ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١، ويقول العماد الأصبهاني إنها مشتملة على حقيقة الشيخ وطريقته ووفائه ووفاته، وفيها يقول:

أي ركن وهي من العلماء	أي نجم هوى من العلياء
إن رزه الإسلام بالحافظ العا	لم أمسى من أعظم الآراء
أقفزت بعده ربوع الأحادي	ث وأقوت معالم الأنباء
كان من أعلم الأنام بأسما	ء رجال الحديث والعلماء
كان علامة ونسابة لم	يخف عنه شئ من الأشياء
أنت أعلى من أن تُحد بوصف	بلغته بلاغة البلغاء

وفتيان في المرثية محزون الفؤاد مكبر لفجيرة دمشق في محدّثها الذي لا يبارى ومؤرخها الذي لا يحارى. وهو في البيت الثاني يصور في ألم إقفار المدرسة النورية من محدّثها الأكبر وإقواء أو إقفار دمشق من مؤرخها العظيم صاحب تاريخها الذي يقال إنه كان يقع في ثمانين مجلدا. وحقا كن من أعلم علماء عصره - إن لم يكمن أعلمهم - بالحديث النبوي ورجاله وبتاريخ دمشق وأعلامها من مختلف الأجيال، مع الحلم ومع التقوى والورع، ومع ما ألقى عليه من محبة أهل زمنه وإجلالهم.

ويتوفى بعده في السنة التالية القاضى أبو الفضل كمال الدين محمد بن الشهرزوري وكان قد ولى القضاء لعماد الدين زنكي في الموصل، وتوفى فالتحق بابنه نور الدين فولاه القضاء في دمشق وارتقى عنده إلى درجة الوزارة، وأقره صلاح الدين

بعد وفاة نور الدين على عمله ومنصبه، ولم يلبث أن توفي. وفيه يقول فتيان من مرثية طويلة:

عدم الإسلام معدوم المثال	وهوت من أوجها شمس المعالي
ولسان الشرع قد ألبس عبا	بعد ا كان جريئاً في المقال
وسماء الدين قد ران على	بدرها النقصان من بعد الكمال
والقضايا قاضيات نحبها	إثره حزناً على تلك الخلال
مات من كان لأهل العلم كهفا	ومثالا مُحسنا أي شمال (١)

وهو يبكي الإسلام والقضاء وعلوم الشريعة فيه، إذ كان له القضاء والفتوى كما كان له الفقه والشريعة، وكانت له فضائل كثيرة بجانب علمه وفقهه، إذ كان جواداً وغيثاً مدراراً، كما كان مرجعاً للعلماء - كما يقول فتيان - ومثالا وسندا لهم. ويتوفى تقي الدين عمر صاحب حماة فيؤبنه بمرثية يقول فيها:

أباح ثغور الكفر بالسيف عنوة	وسد ثغور السلم بالطعن في الثغر
وكيف يُلام المسلمون على الأسي	وقد عدم الإسلام ناصره عمر
لقد كان يلقي المرهفات بوجهه	وسمر القنا بالصدر في الورد والصدر (٢)
وكان يزد الجحفل المجر وحده	يمسون بالأيدي الظهور من الخور (٣)

وهو يشيد ببسالته في حرب حملة الصليب ويصور حزن المسلمين عليه، إذ خسروا فيه بطلا من أبطالهم طالما دَوَّخ الصليبيين، وطالما نازلهم راميا بنفسه في أتون الحرب مقبلاً دائماً معرضاً وجهه للسيوف وصدرة للرماح، وكم ردّ من جحافلهم الكثيرة وولوا أديبارهم فزعين مروّعين. ويتوفى الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب، فيؤبنه بمثل قوله:

لئن كان خلق الخلق من طين آدم فمن نور خلق الله خلقك يا غازي

(١) الشمال: الملجأ والغيث.

(٢) المرهفات: السيوف. القنا: الرماح

(٣) المجر: الكثيف

فمن لليتامى والأرامل بعده
يقوم بإكرام عليهم وإعزاز
مضى ملكه المحروس من عيب
ومن عبث الزاري ومن عنت الرازي
عائب

وكان الغازي مهيبا حازما راعيا لشعبه يكسو العاري ويطعم الجائع عالي الهممة
حسن التدبير والسياسة، محبا للعلماء، مجزلا العطاء للشعراء، فحمى ملكه - كما يقول
فتيان - من عيب العائب وزراية المزرى وعنت الرازي أو الممتحن المختبر.

ولفتيان بجانب مراثيه شكوى مريرة من الدهر والناس والحظ المقسوم عليه كقوله:

علام تحركي والحظ ساكن
وما نهنت في طلب ولكن
أرى ندلا تقدمه المساوي
على حر تؤخره المحاسن

وهي شكوى قديمة عند الشعراء حين يقعد بهم الحظ ولا ينالون ما يتمنون أو ما
يرون أنهم جديرون به. ويبلغ بهم ذلك أن يقولوا ما يقوله فتیان من أن لا فائدة في
الحركة وأن المساوي تقدم أصحابها بينما تتأخر المحاسن بأهلها وهو بعد في الشكوى
وإغراق في التشاؤم.

مصطفى^(١) البابي

هو مصطفى بن عبد الملك - وقيل عثمان - البابي، ولد بالباب إحدى قرى حلب في القرن الحادي عشر الهجري أيام العثمانيين، ونشأ بحلب وتعلم على شيوخها وأدبائها، وتركها إلى دمشق سنة ١٠٥١ للهجرة وأقام بها مدة يأخذ عن أدبائها وشيوخها، ورحل إلى إستانبول وأفاد من علمائها وعين قاضيا لطرابلس وتقل قاضيا في بلد الدولة العثمانية بالعراق والحجاز في المدينة المنورة، وتوفي بمكة في أثناء حجه سنة ١٠٩١.

وكان البابي شاعرا مجيدا، ويشغل المديح أكثر ديوانه على عادة الشعراء في تلك الحقبة، ويتخلل المديح أسراب من الشكوى. وقد يفرد للشكوى بعض القصائد، من ذلك قوله من قصيدة استهلها محزونا لتحول عهد مية، ويقول إنه ما زال يبكي الأطلال حتى بكته بدمعها إشفافا عليه، ويلتفت إلى الدهر شاكيا.

أي ذنب نعاتب الدهر فيه	وعتاب الأيام داء عضال
أنا ما بين فرقة تجمع السق	م وبعد تدنو به الآجال
وخطوب ألفتها يستعيز الـ	خوف منها وتذعر الأهوال
وأمان تجاذب الدهر ذيل الـ	حظ والدهر جاذب جدال
همة أرقت جفون الأمانى	بوعود للدهر فيها مطال
أتمنى من الزمان وفاء	ووفاء الزمان أمر مجال

يقول إن ذنوب الدهر عنده كثيرة فلا يدري لكثرتها، أي ذنب يعاتبها فيه هل يعاتبها في فرقة الأحباب أو فيما ينزله به من خطوب يستعيز الخوف من شرها وتفزع الأهوال. وتلك أمانيه ما تزال تجاذب الدهر ذيل الحظ تريد أن تجذبه إليها والدهر أشد جذبا نبل إنه جدال يصرع من ينازعه، وفي صدره همة تؤرق جفون الأمانى بما تعرضه

(١) انظر في مصطفى البابي وشعره نفحة الريحانة ٤٣٣/٢ وخلاصة الاثر ٣٧٧/٤ طبع ديوانه في بيروت سنة ١٨٧٢ وطبع مع ديوان ابن الجزري وفتح الله بن النحاس باسم العقود الدرية بتحقيق الطباخ.

عليها من وعود وما يزال الدهر لا يفي بها، وكأن وفاءه أمر محال. ويقول من قصيدة يشكو فيها الزمان.

صاحبِي ابغيا لنا خارج العا	لم داراً فبئس دار الزحام
وأصدقائي ألتما بين ليل	ونهار مالي حليف ظلام
واستعيرا لمقلتي هجعة ع	ل منامي يعود لو في منام
من أمور تقذى العيون وأخرى	تصدع السمع مثل وخز السهام
مشرب كله قذى سوغته	إلف هذى النفوس للأجسام
من أراد العيش الهني فلا يُع	مل فكرا فالعيش عيش السوام

وقد بلغ به ذم العالم وكل ما فيه من أناسي وغير أناسي انه يود لو خرج من هذا العالم جميعه، ويتساءل أليس يوجد مع الليل نهار بل إنهما يتعاقبان فلماذا هو يعيش في ليل مسهدا لا ينام ولا تغفل عينه، فهل يجد هجعة أو لحظة من نوم حتى ولو في الخيال والمنام، وهيهات فإن الدنيا مليئة بما يقذى العيون ويصك الأسماع من آلام، حتى لكانها مورد من غسلين أو زقوم، وكل ذلك بسبب الأجسام وما تلطب من متاع مادي. ويقول من أراد أن يعيش هنيئاً فلا يفكر، فالعيش عيش الجهال ومن يشبهون السوام الراعية من الإبل. وكل ذلك تشاؤم شديد، والغريب أنه كانت فيه مع ذلك كله نزعة صوفية جعلته يمدح القطب الرباني عبد القادر الجيلاني صاحب الطريقة الجيلانية فضلا عما في ديوانه من مدائح نبوية وتوسلات ربانية.

شعراء الطبيعة ومجالس اللهو

لشعراء الشام من قديم عناية بوصف طبيعة بيئتهم ومشاهدها الخلابه، ومرت في كتاب العصر العباسي الأول عناية أبي تمام بوصف الطبيعة في مقدمات مديحه أو مستقلة في بعض أشعاره، من ذلك وصفه للربيع، وكذلك وصفه للطير وأحاسيسه، على نحو ما عرضنا هناك من تصويره لقمري وقمرية يتساقيان رحيق الهوى، بينما هو محزون شديد الحزن. ووقفنا في كتابنا العصر العباسي الثاني عند براعة البحري في وصفه للطبيعة وكان يحسن تصوير مناظرها الساحرة. وتلتقي في أوائل عصر الدول والإمارات بكشاجم وله كتاب في الصيد سماه المصايد والمطارد وهو منشور، وله قصائد مختلفة في وصف كلاب الصيد وجوارح الطير وقصائد كثيرة في وصف الرياض والسحب والأمطار من مثل قوله:

غيث أتانا مؤذن بخفض	متصل الويل حثيث الركض
يضحك في برق خفي الومض	كال كف في انبساطها والقبض
والأرض تجلى بالنبات الغض	في حليها المحمر والمبيض
وأقحوان كاللجين محض	ونرجس ذاكي النسيم بض
مثل العيون رنقت للغمض	ترنو ويغشاها الكرى فتقضي

وهو مطر متصل الويل يؤذن - كما يقول - يخفض العيش واتساعه ويسره والبرق يلمع بين السحب ويتوارى كال كف تنبسط وسرعان ما تتقبض، والأرض كأنها في حفل عرس تجلى بأزهارها وورودها والأقحوان يتلألأ كالفضة الخالصة والنرجس العطر النضر مثل العيون تنكسر جفونها للنوم، وهي تارة ترنو وتارة تستسلم للنوم فتغضي أو بعبارة أخرى تطبق جفونها الناعسة، وتنسب إلى سيف الدولة الحمداني الأبيات التالية في قوس قزح^(١):

(١) البيتمة ٣١/١.

لقد نشرت أيدي الجنوب مطارفا على الجو دُكنا والحواشي على الأرض
 يطرزها قوس الغمام بأصفر على أحمر في أخضر تحت مُبيض
 كأذيال خود أقبلت في غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض

يقول: رياح الجنوب نشرت على الجو ثيابا دكنا مغبرة ملأت الآفاق بالطول
 والعرض وحواشيها على الأرض، وقوس قزح يطرزها بألوانه البهيجة الكهرمانية والياوتية
 والزمردية، وكأنما شابة جميلة أُقبلت في غلالات أو ثياب رقيقة صُبغت بألوان مختلفة
 بالطول والعرض وبعضها أقصر من بعض. وهي صورة بديعة. ويقول العرقله من
 شعراء الخريدة (١):

الشام شامة وجنة الدنيا كما إنسان مقلتها الغضيضة جلق
 من أسها لك جنة لا تنقضي ومن الشقيق جهنم لا تحرق
 فعلام تصحو والحمام كأنها سكرى تغنى تارة وتصفق
 وتلوم في حب الديار جهالة هيهات يسلوها فؤاد شيق

وهو يجعل الشام خالا في وجنة الدنيا ويجعل " جلق " اسم دمشق القديم إنسان
 مقلتها الغضيضة التي ترمقها باستحياء، لجمال أزهارها من آس وغير آس، وكأنما
 تخدر بجمالها أحاسيس مُشاهدها، فلا يصحو، والحمام من حوله فرح بهيج يغني
 ويصفق طربا. وإن الشام لخليقة بحب أهلها وفتنتهم بها لجمال مناظرها الطبيعية.

ويقول فتیان الشاغوري في وصف قرية الزيداني بشهر كانون شتاء والثلوج تتراكم
 على أشجارها ونباتاتها في شهر كانون زمن الشتاء مهیئة لازدهار أزهارها في زمن
 الربيع (٢):

قد أجمد الخمر كانون بكل قدح وأخذ الجمر في الكانون حين قدح
 يا جنة الزيداني أنت مسفرة عن وجه حسن إذا وجه الزمان كلح

(١) الخريدة (قسم الشام) ٢١٧/١.

(٢) الديوان ص ٩٤ وابن خلكان ٢٥/٤.

فالتلج قطن عليك السحب تتدفعه والجو يلجبه القوس قوس قزح

وقد صور فتيان كل ما يحمل ماء في الزبداني بأقداح تحمل خمرا، وقد جمدها
القر الشديد وأحمد الجمر في الكانون أو الموقد حين اتقد. ويتصور قرية الزبداني جنة
من جنان الدنيا وما يلبث أن يصور الثلج وهو يتساقط كالريش من السحب مثل قطن،
والسحب تتدفعه بقوس قزح. والجو يلجبه. صورة بديعة.

ويقول الوداعي على بن المظفر في منظر رأس العين ببعلبك^(١):

يا حادي الأظعان إن شارفت	من بعلبك سفح لبنانه
فاقرأ تحياتي على نازلٍ	في محجر العين كأنسانه
والروض يهدي مع نسيم الصبا	نشر خزاماه وريحانه
وراسل القمري ورقاهه	شدوا على أوتار عيدانه

وقد أشار الوداعي إشارة واضحة بمحجر العين إلى رأس العين منزل صاحبتة،
وأبدع في البيت الأخير إذ جعل القمري المترنم على عيدان الأشجار يراسل صاحبتة
شدوا وغناء على أوتار تلك العيدان. وتكثر مثل هذه الطرائف التصويرية عند
معاصرين به في زمن المماليك، وبعدهم في زمن العثمانيين كقول فتح الله بن النحاس
في وصف الربيع^(٢):

نثر الربيع ذخائر الذ	وار من جيب الغوادي
والورد مخضوب البنا	ن مخرج الوجنات نادي
حرسه شوكة حُسنه	من أن تمد له الأياد
والعندليب أمامه	بفصيح نغمته ينادي
من رام يعبث بالخدو	د فدونها خرط القتاد ^(٣)

(١) خزانة الأدب للحموي ص ٣٤٢.

(٢) الديوان ص ٢٣ ونفحة الريحانة ٥١٢/٢.

(٣) دونه خرط القتاد: مثل يضرب للشئ لا ينال إلا بمشقة شديدة.

والصور في الأبيات جيدة فالربيع ينثر الأزهار من جيب السحب الغواصي والورد أحمر البنان والوجنات تلمع عليه لآلى الندى، والشوك يحرسه من قطف الأياد والعنديلين ينادي: دون هذه الوجنات خرط القتاد، وهو مثل يضرب للشيء لا ينال إلا بمشقة شديدة، والقتاد: نبات صلب له شوكة الإبر وخرطه: انتزاع إبرد.

وبجانب وصف الطبيعة كان للهو مجالسه في منتزهات الغوطة بدمشق وغير الغوطة بالشام، إذ تمتلئ بالبساتين، وكن له مجالس أخرى في الأديرة، مما أتاح لنظم خمريات كثيرة تارة تكون مستقلة وتارة تمتز بصوف الطبيعة أو بالغزل، وتماد بعض الشعراء في مجونه وأسرف في هزله على نحو ما نقرأ من أشعار لأبي الرقعمق^(١) الأنطاكي شاعر المعز الفاطمي وأبنائه ووزرائهم، وكان لا يستحي بالتصريح بالفحش والمآثم على شكالة أبي الحجاج ماجن العراق الذي تحدثنا عن مجونه وهزله في الجزء الخامس من هذه السلسلة، ومن نظيف مجونه قوله^(٢):

توهمت أمرا فلم أنبس	بحرف وناديت بالأكؤس
حُميا كأن سنا نورها	سنا بارق لاح في الحنّس ^(٣)
يُعاطيكها رشا طرفه	سريع إلى تلف الأنفس
بخد يرووك توريدّه	وعين تنوب عن النرجس

وهو يقول إن بعض الأوهام ساورته فلم ينبس ببنت شفة أو كلمة وانصرف إلى الخمر معشوقته التي تلعب حُمياها بخياله، فيظن كأن ضوءها ضوء برق لمع في دجى الليل، وإن ساقيه ساحرة الطرف لتقدمها إليك فتصيبك في الصميم بخد مورد وعين فاتنة.

ويقول الغزي الذي مرت ترجمته^(٤):

فلم نفترعها كأنها الذهب	بكرأ، أبوها وأمها العنب
-------------------------	-------------------------

(١) أنظر في أبي الرقعمق البيتية ٣٢٦/١ وابن خلكان ١٣١/١ والعبر ٧٠/٣ والشذرات ١٥٥/٣.

(٢) البيتية ٣١٢/١.

(٣) حُميا الخمر: سورتها وشدتها. سناء: ضوء، الحنّس: دجى الليل الشديد السواد.

(٤) الخريدة (قسم الشام) ٨١/١.

أرق من عبرة اليتيم ومن	عبارة الصب قلبه وصب
مدامة تصقل القلوب إذا	رانت عليها الهموم والريب
كئوسها أنجم نضل بها	لا يهتدي من تضله الشهب
لا فدم فينا ولا فدام لها	عروس دن عقودها الحبيب

وهو يقول لصاحبه قم نفترعها أو نفتضها ونشربها، إنها في رأيه - كعروس بكر- أبوها وأمها العنب، رقيقة رقة عبرة اليتيم وعبارة الصب أو المحب الوصب الموجع قلبه. ويقول إنها تجلو القلوب وتكشف عنها الهموم والريب أو الشكوك، ويعجب من كئوسها أن تكون أنجما ولا تهدين بل تضل صاحبها وأي ضلال بينما عادة النوم أن تهدي، ومن تضله لا يهتدي أبدا، لأنه فقد هداه. ويذكر أن ليس في رفاقه فدم أو أحرق وأنه لا فدام لها أو مصفاة إذ هي شديدة الصفاء، ويقول إنها عروس دن عقود جيدها لآلي الحبيب التي تعلقو كئوسها حين يمتزج بها الماء. ويدعو فتیان الشاغوري صديقا إلى نزهة قائلاً^(١):

بادر إلينا فإن الراح ممكنة	والكأس دائرة والشمل مجتمع
ويومنا طيب صافي الأديم وما	فيه هواء ولا في رأسه قزع
والطير ترقص في الأغصان من	تكاد منه على هاماتنا تقع
طرب	

وفتيان يصور لصاحبه ما فيه من أنس مع رفاقه، فالكأس دائرة بينهم واليوم من أيام الربيع لا فيه عواصف ولا في سمائه قزع أو قطع من السحاب المنتشر المنذر بالمطر، والطير ترقص على الأغصان طربا وفرحا بالربيع حتى تكاد لشدة فرحها وطربها تقع على هاماتهم أو رعوسهم.

وتكثر مقطعات الشعر في مجالس اللهو سواء في الخمر أو في الطبيعة ويشتهر بنظمها أربعة يفرد لهم الحموي في خزائنه فصولا طويلة هم مجبر الدين بن تميم، وسنخسه بترجمة، وبدر الدين يسوف بن لؤلؤ الذهبي المتوفى سنة ٦٨٠ والقاضي

محي الدين بن قرناص الحموي معاصره وعلي بن المظفر لوداعي المتوفى سنة ٧١٦،
ومن طريف م أنشده الحموي لابن لؤلؤ الذهبي قوله (١):

فاكر إلى الروضة نستجلها	فثغرها في الصبح بسام
والنرجس الغض اعتراه الحيا	فغض طرفا فيه أسقام
وبلبل الدوح فصيح على الأ	يكة والشحورور تمتام
فعاطني الصهباء مشمولة	عذراء فالواشون نوام
وأكتم أحاديث الهوى بيننا	ففي خلال الروض نمام

وهو خفيف الروح مثل زملائه المذكورين وكانوا جميعا يعنون بالتورية التي أشعتها
مصر منذ العصر الفاطمي عناية واسعة، وقد ورى في البيت الثاني بكلمة الحيا وهو
الخلج عن الحيا بمعنى المطار. وجعل للبلبل لجمال نائه وشدوه الفصاحة وللشحورور
وهو نوع من العصافير التمتمة. ضرب من المقابلة. وجعل الصهباء مشمولة أو باردة
طيبة واستتم الصورة بأنها بكر أو عذراء والواشون نوام. وعاد إلى التورية في البيت
الأخير بكلمة نمام - وه وضرب من السعتر مزهر - عن النمام الحقيقي من الأشخاص.
ويقول محي الدين بن قرناص (٢):

روضة من قرقف أنهارها	وغناء الورق فيها بارتفاع
لا تلم أغصانها إن رققت	فهي ما بين شراب وسماع

وقد روى محي الدين بكلمة قرقف وهو الماء البارد الصافي عن الخمر وهو اسم
من أسمائها، واستتم الصورة إذ جعل أنهار الروضة خمرا مسكرة بأن الحمام فيها أخذه
السكر، بل إن الأغصان نفسها التي رويت من تلك الأنهار سكرت فرققت، فلا عجب
أن يشدو الحمام شدوا عاليا. وأنشد الحموي في خزانته لابن قرناص مقطعات بديعة
كثيرة في الرياض ومثله الوداعي، وهو يكثر من التورية كثرة مفرطة.

(١) خزانة الأدب للحموي ص ٣٢٦.

(٢) نفس المصدر ص ٣٣٠.

ويظل الغرضان: وصف الخمر ووصف الطبيعة حين طوال أيام الممالك وبالمثل أيام العثمانيين من مثل قول علي بن محمد الحشري الشامي المتوفى سنة ١٠٩٠ للهجرة^(١):

قم هاتها وضمير الليل منشرح والبدرُ في لجة الظماء مستبح
عجل بها وحجاب الليل منسدل من قبل يبدو لنا في وكره الصبح
واستضحك الدهر قد طال العبوس به لا يضحك الدهر حتى يضحك القحح
ولا يطيب الهوى يوما لمغتبِق حتى يكون له في اليوم مصطبِح

وهو يخاطب ساقيا أن يناوله كأس الخمر والليلُ من حولهن مبتهج وأضواء البدر تلمع في جوانبه ويطلب إليه أن يسرع بها وحجاب الليل منسدل عليه قبل أن يرفرف الصبح بجناحيه فيملاً الدنيا أنوارا. ويقول إن الدهر لا يقبل عليه ويضحك إلا إذا ضحك الكأس في يده، ويزعم أن الهوى لا يطيب لمن يرب الخمر غبوقا وهو شربها بالعشي حتى يكون له منها صبح وهو شربها في الصباح. ونقف عند نفر من شعراء الطبيعة واللهو.

الوَأَاءُ^(٢) الدمشقي

هو محمد بن أحمد الغساني المشهور بالوَأَاءِ الدمشقي، من أهل دمشق، ولد بها ونشأ، وكان ابنا لشخص من عامة الشعب. يدل على ذلك ما رواه الثعالبي في اليتيمة من أنه لُقِبَ بالوَأَاءِ لأنه كان مناديا بسوق الفاكهة، أو كما كانوا يسمونها دار البطيخ، ينادي على الفواكه جلبا للمشتريين. وقد ذكرنا مرارا في حديثنا عن الشعراء أنهم - في أغلب الأمر - كانوا من عامة الشعب وكانت لهم ملكات هيأتهم لنظمه بل للتفوق فيه. يلقانا ذلك في بغداد وفي القاهرة وفي جميع بلدان العالم العربي. ومكّن لهم ذلك أن التعليم كان يعقد بالمساجد، وكانت دائما هي وحلقات الشيوخ مفتوحة للناشئة ينهلون منها كما يريدون، فكان من له استعداد حسن للتعلم من أبناء العامة ما يزال يتردد

(١) نفحة الريحانة ٣٥١/٢.

(٢) انظر في الوَأَاءِ وشعره اليتيمة ٢٧٢/١ والمحمدون من الشعراء للقطبي و فوات الوفيات ٣٠١/٢ وديونه طبعه المجمع العلمي العربي بدمشق بتحقيق د. سامي الدهان وراجع مقدمته له.

عليها حتى يحسن ما يريد من الفقه مثلاً أو من رواية الشعر. ودائماً كان يتخرج في هذه الحلقات كثيرون شعراء وغير شعراء على نحو ما تخرج الوأواء المنادى على الفاكهة في حلقات الشيوخ بمساجد دمشق.

وليس بين أيدينا ولا في ديوان الوأواء ما يوضح متى وُلد. وأيضاً ليس في الديوان أخبار وأحداث تاريخية تصور حياته، وكل ما فيه أنه لزم شريفاً من سادة دمشق ووجهائها يمدحه، وأنه أعطاه في أول مدحة له عشرين ديناراً، فأخذ يشتهر اسمه بين الشعراء. ومدحه بثلاث قصائد أخرى، دل فيها على شاعرية جيدة، ويذكرون أن اسم هذا الشريف العقيقي أحمد بن الحسن العلوي، فهو من أشراف العلويين وربما كان نقيبهم بدمشق. ويقول صاحب النجوم الزاهرة إنه كان جواداً ممدحاً، وكان على صلة بسيف الدولة في أول إمارته لحلب في العقد الرابع من القرن الرابع الهجري. وربما كان هو الذي قدم الوأواء إليه حين زار دمشق بين سنتي ٣٣٣ و ٣٣٤. وفي ديوانه ثلاث قصائد في مديحه، ولذلك عد من شعرائه. ومن عطايا سيف الدولة والعقيقي أخذ الوأواء يعيش للشعر متكسباً به، وكانت فيه نزعة قوية للمتاع بالحياة، مما عل أكثر شعره يور حول محاور ثلاثة: الغزل والخمر ووصف الطبيعة، وكثيراً ما يمزج بينها جميعاً مثل قوله في القصيدة الأولى من ديوانه:

حاز الجمال بأسره فكأنما	قُسمت عليه محاسن الأشياء
متبسم عن لؤلؤ رطب حيك	بردا تساقط من عقود سماء
تُغنى عن التفاح حمرة خده	وتتوب ريفته عن الصهباء
فامزج بمائك نار كأسك واسقني	فلقد مزجت مدامعي بدمائي
واشرب على زهر الرياض مُدامة	تنفي الهموم بعاجل السراء
لطفت فصار من لطيف محلها	تجرى مجارى الروح في الأعضاء

والوأواء معروف بكثرة تصاويره في أشعاره، فساقيته الخمر تبتسم عن أسنان لؤلؤية كأنها حبات برد تساقطت من عقود في السماء، وحمرة خدها نضرة كحمرة التفاح، وريقها كأنه الصهباء أو الخمر. ويطلب إليها أن تمزج الخمر الحمراء بالماء كما امتزجت مدامعه بالدماء. وقول لصاحبه اشرب على زهر الرياض الذكي الرائحة تلك

الخمير التي تجلب السرور كما يقول، ويزعم أنها تجرى في جسمه مجرى الروح في الأعضاء. ومن قوله في وصف الزاج:

وبنت كرم كأنها لهب تكاد منها الأكف تلتهب
تلعب في كأسها إذا مُزجت كأنما يستفزها طرب
في عرصه الكأس حين تمزجها سماء تبر نجومها ذهب

وهو يتحدث عن الخمير باسم بنت الكرم، ويقول إنها حارة كأنها لسان لهب، وإن الأكف في زعمه تكاد تلتهب لشدة حرارتها. ويزعم أنها تلعب في كأسها حين يمازجها الماء فيطفو حبابها وتضطرب بعض الاضطراب ويجعل للكأس عرصة أو ساحة ويقول إنها تشبه فيه - بزعمه سماء فضية من فتات التبر، نجومها - أي حبابها - ذهب. ويقول من قصيدة:

اسقياني ذبيحة الماء في الكأ س وكفا عن شرب ما تسقياني
إنني قد أمت بالأمس إذا م ت بها أن أموت موتا ثاني
اسقني القهوة التي تنبت الور د- إذا شئت- في خدود الغواني
في رياض تريك في الليل منها سُرجا من شقائق النعمان
كتبتها أيدي السحاب بألا م دموع على طروس المعاني

وهو يتصور مزج الماء بالخمير إعداداً لشربها ذبحا، ويطلب إلى صاحبيه أن لا يسقيه ماء وإنما يسقيه دم الخمير المسفوح. ويزعم أنه لا خوف عليه فقد أماته بالأمس ولن يموت ثانيا. ومثله من مدمني الخمير يموتون مرارا. ويقول إن الهقوة أي الخمير تضرخ خدود الغواني بالخمرة فتصبح كالورد، ويقول إنه يحتسبها في رياض تنير بها ليلا الورود المعروفة باسم شقائق النعمان. ويزعم أن أيدي السحاب كتبت تلك الشقائق بأقلام تستمد من محابر غريبة هي دموع العشاق التي استحالت دما قانيا وقد دُونت على طروس، هي صحف المغاني أو الرياض. ودائما يعني الوأواء في شعره بالتساوير والأخيلة، ومن أكبر الأدلة على ذلك بيته المشهور:

فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت ورداً وعضت على العناب بالبرد

فقد استعار اللؤلؤ للدمع والنرجس للعين والورد للخد والعناب للأصابع والبرد للإنسان، وهي صور لا تحمل شعورا، فضلا عن وجد، غير أن معاصريه كانوا يعجبون بها عنده، وقد بنى الحريري على هذا البيت نفسه مقامته الثانية. وذكر صاحب فوات الوفيات أنه بارح الدنيا في عشر التسعين وثلاثمائة، وأكد أن كلمة التسعين مصحفة عن كلمة السبعين.

ابن قسيم الحموي^(١)

هو مسلم بن الخضر بن قُسمي التوخي الحموي، ولد ونشأ بحماة، ويقول العماد: " كان ثالث القيسراني وابن منير بلغ إلى درجتهم.. وفاق شعرهما شعره، لكنه خانه عمره، وقل شبا (حدّ) شبابه، وحل شعوب (الموت) بشعابه، وذلك في سنة نيف وأربعين وخمسمائة". والعماد يقول إنه توفي شابا ويبدو أن ميلاده لا يعدو العقد الأول من القرن السادس الهجري كما يبدو أن موهبته العشرية نضجت مبكرة، وسرعان ما عمد إلى التكسب بشعره فمدح صاحب حماة، وتطلع إلى الشهرة بين الشعراء وأحس من واجبه أن يسهم بشعره ضد حملة الصليب، وكان عماد الدين زنكي قد أخذ في منازلهم. وحدث أن خرج ملك الروم ن القسطنطينية ومعه جيش كثيف سنة ٥٣٢ لغزو الشام واستولى على بُزاعة وحاصر حصن شيزر بالقرب من حماة فاستغاث صاحبه سلطان ابن منقذ بزنكي فأسعر إلهي في عساكره، واضطر ملك الروم إلى الانسحاب، فغنم زنكي وعساكره من جيشه غنائم كثيرة سوى مجانيقه وآلات حصاره للحصن، ومدحه الشعراء وفي مقدمتهم ابن قسيم بقصيدة رائعة استهلها بقوله:

بعزمك أيها الملك العظيم تنلُّ لك الصعاب وتستقيم

وكان ابن قسيم حينئذ في ريعان شبابه، وطارت قصيدته كل مطار، وفي عام ٥٣٤ حاصر زنكي دمشق، وأعلن له أنر مدبر دولة أبناء طُغتكين وقائد جيشهم دخول دمشق في طاعته. وفي هذه الأثناء يفد ابن قسيم على دمشق ويمدح عماد الدين زنكي ويبدو أنه ظل بها مدة فإننا نراه يطرح شاعرها ابن منير مرارا. وأيضاً فإنه يمدح أنر

(١) انظر في ابن قسيم وشعره الخريدة (قسم الشام) ٤٣٣/١ ومفرج الكروب لابن واصل ٨٢/١ والروضتين لأبي شامة ٣٢/١.

مدبر وله أبق بن محمد بن بوري، وكان زنكي قد ارتضى أن تظل بها أسرة طغتكين والقائم على دولتهم أنر. فاتصل به ابن قسيم ومدحه، وأسبغ عليه الجوائز كما أسبغها عليه من قبل زنكي، وله فيه مدحة أرخها العلماء الأصبهاني بسنة ٥٤٢. ولا نرتاب في أنه ظل متصلا بزركي بمدحه وخاصة حين استولى على الزها سنة ٥٣٩ وبمجرد أن توفي زنكي سنة ٥٤١ رجع جوسلين صاحب الزها إليها بالاتفاق مع من بها من الأرمن، وأسرع إليه نور الدين في عسكره، فهرب جوسلين. وافتتح نور الدين الزها ثانية وهناك بان قسيم بهذا الفتح المبين بقصيدة رائعة. وتوفي الشاعر سريعا في نفس السنة ويقول العماد الأصبهاني: إنه مات شابا.

وقد استعرض العماد في خريدته ديوان شعره واقتطف منه مختارات كثيرة، وهي تدور حول الغزل ووصف الطبيعة والخمر، ويبدو أنه كان يغرق في اللهو والمجون، وأنه ليدعو بعض صحبه لمشاركته فيما يقترف منها بمثل قوله:

خير ما أصبحت مخلوع العذار	فانف عنك الهم بالكأس المُدار
قم بنا ننتهب اللذة في	ظل أيام الشباب المستعار
إنما العارُ الذي تحذره أن	تراني من لباس العار عاري
وسعيد من تقضى عمره	بين كاسات رضاب وعقار ^(١)
في اصطباح واغتباق واقترا	بِ واغترابِ واهتاك واستتار

وهو يصرح- ولا يخفي- بأنه يشرب الخمر المحرمة، غير أنه لما يجره عليه ذلك من عار بين أصحابه، إذ يجد فيها هناعته وسعادته، وهو لذلك يعكف عليها صباحا وسماء أو اصطباحا واغتباقا كما يقول، ويعكف عليها قارا في بلدته حماة ومغتربا في دمشق وغير دمشق، وهو يشربها متواريا ومجاهرا بعصيان ربه منتهكا لحرماته. ومن قوله في خمرة ثانية.

باكرا شمس القناني	تُدركا كل الأمانى
وخذا في لذة العيد	ش على رغم الزمان

(١) الرضاب: الريق، العقار: الخمر

ج قميصا من جمان (١)	قهوة ألبسها المز
ت ثغور الأفيوان	كخدود الورد من تح
بح مخلوع العنان	إنما البغية أن أصد

وهو يدعو إلى المتاع بالخمر، ويصورها بصور جميلة، إذا مزجت بالماء وكأنما لبست قميصا لؤلؤيا. ويصورها في حمرتها والماء أخذ بتلابيبها بثغور من الأفيوان الأبيض تعلوها خدود وردية. ولا يلبث أن يعلن في أبيات تالية عصيانه لربه، فكل ما يبغيه أن يظل سادار في خلع عنانه - أو كما قال في المقطوعة السابقة - في خلع عذاره متهتكا ساجدا في قبلة الكأس لتسبيح مثاني العود وأوتاره. وكأنه يعيد لنا صورة أو صورة من خمريات أبي نواس المتهتكة الخليفة المارقة.

ولابن قسيم بجانب مجونه وغزلياته أشعار في وصف الطبيعة وأشجارها وأزهارها وثمارها من ذلك قوله يصف رمانة:

ومحمره من بنات الغصو	ن يمنعها ثقلها ان تميدا
منكسة التاج في دستها	تفوق الخدود وتحكي النهودا
تفض فتفتت عن	مبسم كأن به من عقيق عقودا
كأن المقابل من حبها	ثغور تقبل فيها خدودا

وتصويره للرمانة بأنها منكسة التاج في دستها أو صدرها تصوير بديع لأنها تتهدل وتتدلى في غصنها وعلى صدرها بقية ثوارها. ويتصور حباتها عقودا من عقيق، وكأنها تحمل بتلك الحبات وما يحيط بها من خيوط بيضاء ثغورا تقبل خدودا. وكان ابن قسيم شاعرا مجيداً، ومزّ بنا أنه كان يتشيع وأنشدنا له أبياتا من شعره الشيعي.

مجبر^(١) الدين بن تميم

هو مجبر الدين محمد بن يعقوب المعروف بابن تميم، ولد بدمشق ونشأ بها،
وسال الشعر على لسانه وانتقل إلى مدينة حماة وعمل في جيش صاحبها الملك
المنصور سيف الدين محمد (٦٤٢-٦٨٣ هـ) جندياً، إحساساً منه بفتوته وشجاعته،
ويصور إقدامه وبسالته في شعره قائلاً:

دعني أخطر في الحروب بمهجتي إما أموت بها وإما أرزق
فسواد عيشي لا أراه أبيضاً إلا إذا أحمر السنان الأزرق

وقربه منه الملك المنصور وأصبح له اختصاص به. ويقول صاحب فوات
الوفيات: " هو في التضمين الذي عاناه فضلاء المتأخرين (من الشعراء) آية، وفي
صحة المعاني والذوق اللطيف غاية، لأنه يأخذ المعنى الأول ويحل تركيبه وينقله
بألفاظه إلى معنى ثان، حتى كأن الناظم الأول، إنما أراد به المعنى الثاني وقد أكثر
من ذلك حتى قال:

أطالع كل ديوانٍ أراه ولم أزر عن التضمين طيري
أضمن كل بيت فيه معنى فشعري نصفه من شعر غيري

ويقول أيضاً صاحب الفوات فيه " كان جندياً محتشماً شجاعاً مطبوعاً كريم
الأخلاق بديع النظم رقيقه لطيف التخيل" ويقول صاحب النجوم الزاهرة: " كان من
الشعراء المعدودين". ولا نعرف تاريخ مولده، أما وفاته فكانت سنة ٦٨٤ للهجرة.

ومجبر الدين بن تميم من أصحاب المقطعات الطريفة في الغزل والطبيعة والخمر،
ولا يبارى في ابتكار الصور والأخيلة وحشد التوريات في مقطعاته، مع الظرف وخفة
الروح والتعليقات الحسنة، ونقتطف بعض أمثله من شعره، من ذلك قوله في الساقية
والطبيعة من حولها:

تأمل إلى الدولاب والنهر إذ جرى ودمعهما بين الرياض غزير

(١) انظر في مجبر الدين بن تميم وشعره فوات الوفيات ٥٨٣/٢ وخزانة الأدب للحموي ص ٣١٩-٣٢٥ و النجوم الزاهرة
٣٦٧/٨ وفي مكتبة جامعة القاهرة مصورة لمختارات من ديوانه بخط الصفدي في ٤٧ ورقة.

كأن نسيم الروض قد ضاع منهما فأصبح ذات يبكي وذاك يدور

ولكلمة "ضاع" معنيان: معنى سطوع الرائحة الطيبة التي يحملها النسيم عن الأزهار، ومعنى الفقد والهلاك، وبذلك تمت لابن تميم التورية التي يريدنا من استخدامه للكلمة، وقد أراد المعنى الثاني. ويقول مفاخرنا بين الأرض والسماء.

يا جاعل الأفق مثل الأرض حجته بالشمس إذ بزغت والبدر حين وضح
كم من شمس وأقمار إذا سرحت في الأرض طرت إليها خفة وفرح
ولا تقل: قُرح في الجو زينة في كل غصن ترى في الأرض قوس قرح

فهو يعارض من يعلى السماء على الأرض بحجة بزوغ الشمس والقمر فيها قائلاً إن في الأرض شمساً وأقماراً من النساء والفتيات أجمل وأكثر حسناً. ويقول لصاحب السماء: لا تحتج بجمال قوس قرح، فأغصان الرياض في الطبيعة تحمل ما لا يحصى من أقواس قرح نضرة أرجة. ويقول:

سبقت إليك من الحديقة وردة وافتك قبل أوانها تطفيلاً
طمعت بلثمك إذ رأتك فجمعت فمها إليك كطالب تقبيلاً

وهي وردة في بدء تفتحها وهي لا تزال في كمّها، مما جعله يعلل تجمعها قبل أن تفتح هذا التعليل البديع الدالّ على لطف تخيله كما قال صاحب فوات الوفيات. ويقول في وصف ناعورة أو ساقية:

ناعورة مذ ضاع منها قلبها ناحت عليه بأنه وبكاء
وتعلت بلفائه فلأجل ذا جعلت تدير عيونها في الماء

فقواديسها لا تهوى فارغة طلباً للماء والصعود به، وإنما تهوى بحثاً عن قلبها الذي ضاع منها، وجعل لحونها الحزينة أنينا وبكاء عليه. ويقول:

لم لا أميل إلى الرياض وزهرها وأقيم منها تحت ظل ضافي
والغصن يلقاني بثغر باسمٍ والماء يلقاني بقلب صافي

والشعر الباسم هو الأقحوان المتفتح والشعراء يشبهونه بالشعر كثيرا، وفي البيتين رقعة ودقة حس وخفة روح. وقد يخلط الطبيعة بالغزل كما في قوله:

كيف السبيل لأن أقبل خد من أهوى وقد نامت عيون الحرس
وأصابع المنثور تومي نحونا حسدا وتغمزها عيون النرجس

والمنثور زهر ذكي يزهر في أعلى سيقانه، شبهه ابن تميم الأصابع، وتشبيه الشعراء للنرجس بالعيون قديم. وقد استغلها جميعا في هذا التعليل، إذ لا يستطيع الاقتراب من صاحبتة. ويقول في الخمر مداعبا:

روحي الفداء لمن أدار بلحظة صهباء في عقلي لها تأثير
فاعجب له أني يصون بلحظة مشمولة وأناؤها مكسور

وكلمة "مكسور" إما من كسر الإناء بمعنى تهشمه وتحطمه، وإما كسر ما فيه من الخمر بالماء وهو كسر حميها وثورتها، وهو المعنى المراد في البيت. ويقول أيضا في الخمر:

وليلة بت أسقى في غياهبها راحاً تسلُّ شبابي من يد الهرم
ما زلت أشربها حتى نظرتُ إلى غزالة الصبح ترعى نرجس الظلم

ويريد بالغزالة الشمس وينرجس الظلم النجوم. ولم يكن ماجناً مثل ابن قسيم، ولا ندرى هل كان يشرب الخمر حقاً أو كان ينظم فيها محاكاة لمدمنيها تظرفا. ومن طرائفه في الرياض قوله:

بعث النسيم رسالة بقدمه للروض فهو بقره فرحان
ولطيب ما قرأ الهزار بشدوه مضمونها مالت له الأغصان

والهزار: طائر حسن الصوت يشتهر بلحونه الكثيرة. وواضح ما في ميل الأغصان لسماع شدو الهزار من عنصر المفاجأة، وكل مقطوعات تميم تقوم على هذا العنصر وما يحدث في النفس من هزة الارتياح والسرور لسماع مثل هذه المفاجآت الكثيرة عنده، وقد أنشد منها صاحبها الفوات والخزانة بدائع كثيرة.

ابن النقيب^(١)

هو عبد الرحمن بن محمد الحسيني الملقب بابن النقيب، ولد في دمشق سنة ١٠٤٨ للهجرة لأبيه النقيب الشريف، وعُنى بتربيته، فحفظ القرآن الكريم، واختلف إلى شيخ أيامه بالإضافة إلى أبيه وما كان يلقنه من اللغة والحديث. وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة، واتجه بها إلى وصف الطبيعة ومجالس الأنس والغزل مع الإمام بالمديح، ولم يكن في حاجة إلى تكسب به، ولذلك يمكن أن تعد مدائحه في باب الإخوانيات، وهي ليست الجواهر في ديوانه المنشور، غنما الجواهر فتنته بالطبيعة الدمشقية ومنتزهاتها وجمال الدمشقيات ووصف الراح من خلال الطبيعة الفاتنة. ويقول المحبي " ما أذكره له تشبيه زُهر (حسان) أو زهر، أو وصف روض مطل على نهر، وهو ممن أغرى بهذين النوعين، وذلك أما لميل غريزي في فطرته، أو لأن دمشق متروح فكرته". ولم يطل به الدهر بين هذه المفاتن التي كانت تخلص ليه. فقد توفي في الثالثة والثلاثين من عمره سنة ١٠٨١ للهجرة. ومن قوله في نهر وروض على حافتيه:

النهر يصدا بهاتيك الظلال كما يصدا من الغمد حد الصارم الذكر

والزهر يفرش في شطيه ما رقمت فيها السحائب من ربط ومن حبر

ربيعة الوشي لا ينفك زبرجها يجلو لنا من حلاها أحسن الصور^(٢)

ويشبه الشعراء الأنهار الضيقة والجداول بالسيوف لشدة لمعانها. وقد جعل ابن النقيب النهر يصداً كما تصدأ السيوف، أما هي فتصدأ بأغمادها، وهو يصداً بظلال الأشجار من حوله، والزهر يفرش في شطيه ما رقمت أو نقشت فيهما السحائب من ربط وجبر أو ملاءات مخططة وحريرية ذات وشى ربيعي لا يزال زبرجه ونقشه يجلو من حلى الطبيعة وجواهرها أجمل الصور.. ويذكر مجلساً من مجالس أنسه في بعض منتزهات دمشق قائلاً:

ومجلس حفت الغصون بنا فيه ووجه الرياض مبتهج

(١) انظر في النقيب وشعره خلاصة الأثر ٢/٣٩٠ ونفحة الريحانة ٢/٣٤ وديوانه (طبع المجمع العلمي العربي في دمشق) وانظر مقدمتي أحمد الجندي وخليل مردم للديوان.

(٢) الزبرج: الحلية من الوشي أو الجواهر.

كأن أوراقها يرف بها فوق الندامي نسيمها الأرح
خضر من الأرز لا تزال بها مناكب الراقصات تختلج

وهي صورة بديعة إذ يجعل أوراق الأغصان - حين يرف نسيمها فوق الندامي -
كأنها أزرق أو شيلان تظل مناكب الراقصات المختلج المتحركة في أثناء رقصها
ودورانها فيها. ويقول في بدر يلوح ويحتجب من خلال أغصان:

كأنما الأغصان يثنيها الصبا والبدر من خلل يلوح ويحجب
حسنا قد عامت وأرخت شعرها في لجة والموج فيها يلعب

والصورة أيضا بديعة، فالبدر وهو يظهر ويغيب من خلال الأشجار كحسنا في
لجة مرخية ذوائب شعرها ووج أضوائها من حلوها يلعب في فضاء الطبيعة الساحرة.
وكان مغرى بوصف زهرة القرنفل، يصفها بيضاء وحمراء وبيضاء مشربة بحمرة كقوله:

وزهر قرنفل في الروض يحكي عقيق دم على صفحات ماء
رأى وجنات من أهوى فأغضى فبان بوجهه أثر الحياء

فاحمرار القرنفل إنما هو حياء وخفر منه حين رأى وجنات صاحبه، فأغضى
عينيه وقارب بين جفونه استحياء. وله راء شعر الطبيعة واللهو والمجون موشحات
مختلفة منها ما عارض به لسان الدين بن الخطيب في موشحته: " جادك الغيث إذا
الغيث همي". وله أيضا شعر دوري تتألف المنظومة منه بيتين بيتين. وبدون ريب كان
شاعرا بارعا، وحقا ما يقوله المحبي من أنه كان يتخيل التخيلات البعيدة في التشابه
العجيب".

شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

الشام من قديم دار عبادة ونسك وتكشف، وبها كان مهبط ديانتين: الديانة اليهودية والمسيحية، ومر بنا في الفصل الأول استعراض لنساكها الأولين ورفضهم للمتاع الدنيوي وإقبالهم على ما عند الله من ثواب الآخرة. وحين قام نظام الرهينة في المسيحية شاعت فيها الأديرة وشاع فيها النسك. وتعمها أضواء الإسلام، وتشيع فيها تعاليمه الزاهدة وينزلها كثيرون من زهاد الصحابة وأتقيائهم النساك وتشيع فيها التقوى، وتصبح ساحة كبرى من ساحات العبادة، كما تصبح مباءة لكثيرين من صلحاء الأمة، وتتطاير على ألسنتهم كلمات زاهدة تقية كثيرة، عرضنا لأطراف منها في غير هذا الموضع، وطبيعي أن يجد ذلك صدهاء في الشعر والشعراء الشاميين. ويلقانا في ديوان أبي تمام باب للزهد، ويظل الشعراء بعده ينظمون فيه كقول أبي فراس (١):

أما يردع الموت أهل النهي	ويمنع عن غيه من غوى
فيا لاهيا آمنة والحمام	إليه سريع قريب المدى
إذا ما مررت بأهل القبور	تيقنت أنك منهم غدا
فلا أمل غير عفو الإله	ولا عمل غير ما قد مضى

وأبو فراس يقول: الموت خير واعظ للإنسان وإنه لجدير أن يردع الغوى عن غيه ويرده إلى رشده، ويجب من لاه آمن على نفسه ولا يفكر في هول ما ينتظره من موت يوشك أن ينزل به، وغدا يطير إلى رمسه، ولا أمل له سوى عفو ربه فحريّ به أن يكف عن كل موبقة ويأخذ من يوم حياته ليوم مماته، وإنه لقريب. ويتعمق أبو العلاء التفكير في الحياة والموت نهاية كل حي وينشد (٢):

هي النفس تهوى الرحب في كل موطن	فكيف بها إن ضاق في الأرض قبرها
وهل يرتجى خضر الملابس ظاعن	وقد مزقت في باطن التراب غيرها

(١) الديوان ٦/٢

(٢) اللزوميات (طبع مطبعة المحروسة) ٣١٢/١

نوائب أَلقت في النفوس جرائحا عصى كل آس في البرية سبرها
لي القوت فليغمر سرنديب حظها من الدر أو يكثر بغانة تبرها

وأبو العلاء يضع أمام الإنسان مصيره وأنه لابد مفارق للدنيا الرحبة الواسعة إلى القبر الضيق المظلم. وربما كان يكنى عن كل متاع الحياة بخضر الثياب يلبسها ضاعن راحل عن دنياه إلى قبر موحش تغبر فيه هذه الثياب وتمزق تمزيقاً. ويقول تلك نوائب تصيب النفوس في الصميم وتحدث فيها جراحا عميقة يستعصي سبرها ومعرفة غورها على كل طبيب، ويذكر أنه لا يفكر في طيبات الحياة ولا تمر بخاطره، إذ هو قانع بقوته وما يسد رمقه، ولتمتلى سرنديب- أو كما تسمى الآن سيلان - بمغاوص لآلئها من الدرر وليكثر بغانة في غربي إفريقيا التبر كما يقولون، فحسبي قوتي. ومّر بنا أنه كان زاهدا في الدنيا ونعيمها، مكتفيا بالعدس والتين. ومر بنا أيضا أن ديوانه اللزوميات في مجلدين، وقد بناه على تمجيد الله والتحذير من الدنيا ومتاعها الزائل كما قال في مقدمته. ويقول ابن سنان الخفاجي (١):

استغفر الله القديم وعُد به من شر غاو في الحطام منافس
وافعل جميلا لا يضيع صنيعه واسمح بقوتك للضعيف البائس
واقنع ففي عيش القناعة نعمة لا تتقي كفّ الزمان الخالس
لا تفخرن وإن فعلت فبالنقى ناضل وفي بدل المكارم نافس

وهو يستغفر الله من شر كل غاو منافس في حطام الدنيا ومتاعها الزائل، ويوصى بفعل الجميل ومدّ اليد بالقوت للبائس الفقير. ويوصى أيضا بالقناعة ويقول إنها نعمة لأن الإنسان معها لا يخاف على شيء يختلسه منه الزمن، ويوصيه أن لا يفخر إلا بالتقي ولا ينافس إلا في المكارم والمحامد. ويقول الحسن بن طارق الحلبي من شعراء الخريدة (٢):

عمرت دار فناء لا بقاء لها ظنا بأنك عنها غير منتقل

(١) الديوان ص ٥٧

(٢) الخريدة (قسم الشام) ١٥٨/٢.

أتعبت نفسك لا الدنيا ظفرت بها وأنت لا شك في الأخرى على وجل
دار الإقامة أولى بالعمارة من دار نعيمك فيها غير متصل
فاعمل لنفسك ما ترجو النجاة به فليس ينجيك إلا صالح العمل

وهو يزهد في الدنيا والعمل على تحقيق المآرب فيها مع نسيان الآخرة دار الإقامة الحقيقية التي ينبغي أن يعمل لها الإنسان، وهي حقا الأجدر بأن يقدم لها كل ما يستطيع من تقوى وعمل صالح حتى يفوز برضوان ربه.

ويقول الإمام النووي الفقيه الشافعي المتوفى سنة ٦٧٦ للهجرة (١):

وجدت القناعة أصل الغنى فصرب أذيالها ممتك
فلاذا يراني على بابه ولاذا يراني به منهمك
وعستُ غنيا بلا درهم أمر على الناس شبه الملك

وكان محيي الدين النووي إماما ورعا زاهداً مثابراً على التقوى والقناعة، فلا أحد من الحكام - كما يقول - يراه على بابه طالبا حاجة، ولا أحد يراه مشغولاً به منهمكاً، فانهماكه إنما هو في العبادة والتهجد والنسك وفتوى الناس في أمور دينهم وتدريس الفقه والحديث النبوي آخذاً نفسه في حياته بالنقش الشديد. ويقول مصطفى البابي الذي مرت ترجمته: إن الأرض مقبرة كبرى تطؤها أقدامنا غير واعين، بل إنه يبعد في خياله قائلاً:

قد غنيا عن الدروس بما تُم لى علينا صحائف الأيام
من عظام تُتلى بغير لسانٍ وسطور خطت بلا أقلام
ولو أن العيون زال غشاها لرأت كل أخص فوق هام (٢)
بل وفي كل وردة ألف خد وقضيت يميم ألف قوام

فالحياة قصيرة والمصير للجميع الموت، وحري بالإنسان أن يفكر في هذا المصير المقدم عليه، وكم ملايين بل مئات الملايين ماتوا ووراهم أهلهم التراب، حتى لكأن أي

(١) الكشكول (طبعة عيسى الحلبي) ٣٠١/١.

(٢) الأخص: باطن القدم: الهام: الرأس.

مكان لا يخلو منهم، وحتى لكننا نطوهم بأقدامنا، فهم منبثون في كل بقعة وفي كل مكان. ويقول البابي لو زالت الغشاوة عن أعيننا لرأينا - ويالهول ما نرى - أقداما تطأ رعوسا، ولهالنا أن الورد النابت من الأرض يستمد حرته من ألف خد، بالمثل قضيب الأغصان الأهيف المائس المختال يستمد اختياله من آلاف قد. ويلاحظ المحبي أن المشهور في هذا المعنى قول أبي العلاء.

خفف الوطاء ما أظن الديم الـ أرض إلا من هذه الأجساد

وقول مهيار:

رويذاً بأخفاف المطى فإنما تداس جباه في الثرى وخذود

وكأن البابي نظر إلى معنى البيتين جميعاً، ويضيف المحبي أن منزع هذا كله قول المتنبي:

ويدفن بعضنا بعضاً ويمشى وأوخرنا على هام الأوالى

والأوالى: الأوائل. ولا يكتفي المحبي بذلك، بل يقول أن معنى بيتي البابي دقيق، وفي رباعيات عمر الخيام بالفارسية من نوعه أشياء كثيرة، وبذكر أنه ترجم له ربايعه تحمل هذا المعنى على هذه الصورة.

في الاعتبار بمن مضى من قبلنا عبر وتلك هداية المسترشد

فلكم طوت ترياؤنا أمما وهل ميت بغير تراثها لم يلحد

حتى كأن شقيقها دم أسرة سفكت دماءهم عيون الخرد

وبنفسج الروض الندى كأنه خيلان وجنات الخدود الورد

فالشقيق الأحمر القاني يستمد مما سفكته عيون الجميلات من دماء العشاق، والبنفسج الأحمر القاتم يستمد من خيلان وجناتهن. وكل ذلك بعد في التصور والخيال.

وكان يرافق الزهد منذ القرن الثالث الهجري نساك - كما مر بنا في الفصل الأول - أقرب إلى المتصوفة منهم إلى الزهاد في مقدمتهم ابن الجلاء، وكانت الشام ساحة كبرى للنساك يؤمونها طوال هذا القرن والقرون التالية من العراق وإيران مصر. واشتهرت جبال لبنان وأنطاكية بكثرة من كانوا يقيمون بها للنسك والعبادة، وامتد ذلك

إلى دمشق وجبالها وغيرها من بلاد الشام. وذكرنا في الفصل الأول نزول الغزالي بها سنة ٤٨٨ وأنه أخذ يستضيء بقوة بما كتبه أبو نصر السراج والقشيري في الوصل بين أهل الشريعة من الفقهاء وأهل الحقيقة من المتصوفة، فلا شريعة بدون عمل القلب وصدق السريرة ولا تصوف بدون أداء الفرائض والنوافل. وبذلك سد الثلثة التي كانت تفصل بين الجماعتين وأحكم الروابط الدينية بينهما. وزادها دعماً نزول حملة الصليب بديار الشام مما جعل حكام دمشق التابعين للدولة السلجوقية يكثرون من بناء الخانقاهات والرباطات للمتصوفة. وتبعهم في ذلك نور الدين حين أصبحت الشام في قبضته، بل لقد اتسع في العناية بهم ورصد النفقات عليهم. وظلت هذه العناية متصلة في عهد صلاح الدين وخلفائه الأيوبيين والمماليك مما أتاح للتصوف إزدهاراً عظيماً.

وكان قد أخذ يظهر في التصوف تيارات كبيران: تيار سني كانت تتبعه جماهير الشعب، وفيه تأسست طرق صوفية متعددة، من أهمها الطريقتان القادرية والرفاعية على نحو ما صورنا ذلك في غير هذا الموضع. وكان بجانب هذا التيار تيار فلسفي يقوم على أفكار الحلول والاتحاد بالله، ولم تكن له شعبية التيار الأول، وقد مثله في القرن السابع محيي الدين بن عربي الذي نشأ في الأندلس، ثم رحل إلى البلاد العربية والأناضول وألقى عصاه في دمشق، وله كتب كثيرة من أهمها الفتوحات المكية. وله أيضاً دواوين بديعة، لأبياتها ظاهر وباطن، ظاهر يتفق مع السنة وباطن يتفق مع تصوفه الفلسفي. وشُغف كثيرون من أهل الشام بأدبه وشعره منهم من يقف به عند ظاهره ومنهم من يتغلغل في أعماقه. وأخذت أشعاره وتعاليمه الصوفية الفلسفية، وبالمثل أشعار السهرودي وأيضاً أشعار ابن الحلاج الصوفي المتفلسف القديم تؤثر هي وأشعار التيار الصوفي السني في كثيرين بحيث أصبح للشام تراث صوفي شعري. وبدون ريب أكد هذه النزعة الصوفية في الناس ظهور الطريقة القلندرية التي ظهرت في القرن السابع الهجري مع ما دخلها من انحرافات ذكرناها في الفصل الأول، وأيضاً ظهور الطريقتين النقشبندية والبكتاشية لأواخر زمن المماليك. وسنترجم فيما بعد لثلاثة من شعراء الصوفية الذين تمثلوا التيار الصوفي الفلسفي، وهم ابن سوار وعفيف الدين التلمساني وعبد الغني النابلسي، أما ابن عربي فعداؤه في الأندلسيين، وقد نزل دمشق بأخرة من عمره.

وكان يقترن بنزعتي التصوف والزهد مديح نبوي كثير، وهو قديم منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ومديح حسان بن ثابت وكعب بن زهير وغيرهما من الشعراء له تنويهاً بخلقه الكريم ورسالته العظمى وجهاده في سبيل الله وفتوحه. وحين نشطت الحركات الشيعية نشط معها مديحه، إذ انبث كثير منه في مدائهم لأئمتهم العلويين وفي مرثيهم للحسين على نحو ما نجد عند الصنوبري الذي ترجمنا له في كتاب العصر العباسي الثاني.. ولأبي العلاء في اللزوميات قصيدة في مديحه، وفيها يشيد به وبرسالته النبوية الخالدة قائلاً:

دعاكم إلى خير الأمور محمد	وليس العوالي في القنا كالسوافل
حداكم على تعظيم من خلق الضحى	وشهب الدجى من طالعات وآفل
فصلى عليه الله ما ذر شارق	ومافت مسكا ذكره في المحافل

وعوالي القنا أو الرماح هي الماضية القاطعة، ويذكر أنه دعا إلى توحيد الله الذي خلق الشمس ما تغمر به الكون من الضياء وخلق النجوم التي تبزغ تارة وتأفل تارة ثانية، فهو مدبر الكون وملكوته. ويدعو الله أن يحفه ببركاته ما طلعت شمس وما عطر ذكره المحافل بمسك لا يضاويه مسك.

ويحتدم المديح النبوي مع الحروب الصليبية وحروب التتار، إذ أحس الشعراء - بحق - أنها حروب موجهة للإسلام ورسوله الكريم، فأخذوا يشيدون به وينوهون بمعجزاته وسيرته الذكية من مثل قول ابن الساعاتي شاعر صلاح الدين في مدحه نبوية (١):

هو البشير النذير العدل شاهده	وللشهادة تجريح وتعديل
لولاه لم تك لا شمس ولا قمر	ولا الفرات وجاراه لا النيل
مرتل الوحي يتوله ويدرسه	ولم يكن لكلام الله ترتيل
وسيد الرسل حقا لاختفاء به	وشافع في جميع الناس مقبول
بثت نبوته الأخبار إذ نطقت	فحدثت عنه تورا وإنجيل

ويقول ابن الساعاتي هو البشير النذير الذي أشاع العدل في أمته، ويستلهم القائلين بالحقيقة المحمدية وأن الرسول عليه السلام علة الكون ووجوده، فلولاه لم تك شمس ولا قمر ولا حياة في الأرض ولا أنهار، ويقول إنه أول رسول رتل الكلام، وإنه لسيد الخلق وشافع أمته يوم القيامة، وبه تحدثت الأخبار في التوراة والإنجيل مبشرة برسالته العظمى. ويقول فتیان الشاغوري من مدحة نبوية مؤملاً شفاعته في يوم الحشر متمنياً زيارته (١):

أومل من خير الأنام شفاعته	بها في نعيم الجنان أخذ
وددت بأني زرت قبرك رجلاً	وقبلت تراباً أنت فيها موسى
ومرغت خدي عند قبرك ضارعا	بأرض حصاصها لؤلؤ وزبرجد
وذاك ضريح يحسد المسك تربه	وكل شريف القدر لاشك يحسد

وهو يؤمل في شفاعته الرسول بالغفران ودخول الجنان، يوم يطول وقوف الناس في المحشر، ويقول لو استطاع لزار القبر راجلاً وقبله وعقر خده بما حوله من التراب ضارعا متوسلاً بأرض حصاصها لؤلؤ وزبرجد وإن المسك ليحسد ترابه على ما يحمل من طيب لا يماثله طيب. وللسخاوي على بن محمد شيخ القراء بدمشق المتوفى سنة ٦٤٣ قصائد سبع في المديح النبوي. وفي مدحه نبوية يقول الشاب الظريف بالبقعة مثوى الرسول الكريم (٢):

أرض الأحبة من سفح ومن كذب	سقالك منهمم الأنواء من كذب (٣)
يا ساكني طيبة الفيحاء هل زمن	يُدنى المحب لنيل الحب والأرب
أرض مع الله عين الشمس تحرسها	فإن تغب حرسها أعين الشهب

وهو يدعو لأرض الحبيب المصطفى أن تهطل عليها الأمطار سفوحاً وكتباناً من كذب أو قرب لتظل تزهر بالشذى العطر، ويتمنى زمناً يحقق أربه ومنيته من زيارة

(١) ديوان فتیان ص ١٠٩

(٢) ديوان الشاب الظريف ص ٤

(٣) فوات الوفيات ٤٩٧/٢

الجدث الطاهر . ويقول إن عين الشمس تحرسه نهارا وتحرسه أعين النجوم الساطعة ليلا حراسة يراعاها الله جل علاه.

وللشهاب محمود ديوان في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم سقط من يد الزمن واحتفظ كتاب المدائح النبهاانية النبوية لإسماعيل النبهااني بطائفة من مدائحه، وفي إحداها يصور الشهاب محمود ساعة وصول ركبته إلى المدينة المنورة حين بدا لهم العقيق في غريبها ولم يلبثوا أن زاروا القبر الزكيّ يقول (١):

وإذا شارفوا العقيق تراءت	من رُباه سنا القباب الزُّهر
وتلقاهم بشير التلاقي	بقبولٍ تسرى قبيل الفجر
وشذا الروضة التي أزكى	منبر في الدُّنا وأشرف قبر
حبذا ذلك من مقامٍ كريم	يُشتري يومه بكلِّ العُمر

وهو يصور فرحة ركبته أو قافلته بقرب لقاء الرسول حين أشفوا على العقيق ورأوا قباب مسجده قبيل الفجر . والقبول أو ريح الصبا العليل تبشرهم بالتلاقي وعطر الروضة النبوية يفوح، وهو يشير إلى الحديث النبوي: " ما بين قبري والمنبر روضة من رياض الجنة" ويقول إن فرحة المثلول أمام القبر الطاهر يُشتري يومها بالعمر كله. ولكمال الدين محمد بن علي الزملكاني المتوفى سنة ٧٢٧ للهجرة مدحة نبوية رائعة يقول فيها (٢):

محمد خير خلق الله كلهم	وفاتح الخير ماحي كل إشراك
قد نال مرتبة ما نالها أحد	من أنبياء ذوى فضل وأملاك
يا صاحب الجاه عند الله خالقه	مارد جاهك إلا كلُّ أفاك
ها قد قصدتك أشكو بعض ما صنعت	بي الذنوب وهذا ملجأ الشاكي
عليك من ربك الله الصلاة كما	منا عليك السلام الطيب الزاكي

(١) المجموعة النبهاانية ١٧٣/٢ .

(٢) فوات الوفيات ٤٩٧/٢

والزملكاني يقرر حقيقة كبرى، فمحمد عليه السلام خير خلق الله وما حي الكفر والإشراك وقد نال مرتبة لم ينلها الأنبياء ولا الأملاك أو الملائكة. ويتوسل عليه أن يستغفر له ربه وان يحط عنه أوزاره كما يتبين من أبيات تالية، وقد زاره وحط رحاله في حماه لنوال هذا الأمل المنشود. وتكثر مثل هذه الاستغاثة في المدائح النبوية كما يكثر معها طلب الشفاعة. ويقول مصطفى البابي من مدحة نبوية بديعة (١):

إليك رسول الله قد جاء ضارعا	أخو عثرة يرجو الإقالة مذنب
فبابك بابُ الله ما عنه مهرب	وطالبه من غير بابك يُحجب
أغثنى تداركني أجرني فأني	لقى إن تراخى عنه لطفك يعطب
وأبعد شئ أن تضيق برحبها	شفاعتك العظمى بنا فهي أرحب

وهو يضرع إلى الرسول الكريم أن يستغفر له ربه ليقلبه ويخلصه من ذنوبه، ويستغيث به لئذا أن يكون شفيعه يوم القيامة، يوم يطول وقوف الناس في المحشر، والجميع يضرعون إلى الله أن يخلصهم وينجيهم من النار، وسعيد من يشفع له الرسول في هذا اليوم، فيفوز برضوان ربه. واللبابي يتوسل (٢):

يا حيّ يا قيوم قد	بهر العقول سنا بهائك
إني سألتك بالذي	جمع القلوب على ولائك
نور الوجود خلاصة الـ	كونين صفة أنبيائك
إلا نظرت لمستغيث	عائد بك من بلائك
فالطف به فيما جرى	في طي علمك من قضائك

والبابي يجأر إلى ربه ضارعا متوسلا برسوله الذي جمع أمته على الولاء له، ويقول إنه نور الوجود، فنوره يشاهد في كل نور: في نور الشمس والقمر والكواكب والنجوم وهو خلاصة الكونين وصفوة الأنبياء والمرسلين، ويتخذ وسيلة إلى ربه

(١) الديوان ص ٤ ونفحة الريحانة ٢/٤٣٧

(٢) الديوان ص ٥ ونفحة الريحانة ٢/٤٣٤

وشفيعه، حتى يُلطف به في قضائه وما جرى في طي علمه. وحري أن نترجم لنفر من المتصوفة وأحد شعراء الزهد والمديح النبوي وهو أول من نقف عنده.

عبد العزيز الأنصاري^(١)

هو شرف الدين الصحاب عبد العزيز بن محمد بن يونس الأوسى الأنصاري، كان أبوه من فقهاء دمشق، وحين عهد بقضائها في عهد صلاح الدين إلى ضياء الدين الشهرزوري سنة ٥٧٢ جعله من نوابه. ودار العام فاستعفى ضياء الدين من القيام على القضاء، ولا نعرف هل ترك والد الشاعر القضاء أو أنه ظل يعمل فيه مع ابن أبي عصرون خليفة ضياء الدين. وأكبر الظن أنه بقى في منصبه مدة، أو لعله عمل في منصب آخر. ويقولون إنه كان يشتغل بالتجارة في سوق الخواصين ولا ندرى هل كان يجمع بين عمله في القضاء وبين التجارة أو كان يزاولها حين يعفى منه. وولد له ابنه عبد العزيز سنة ٥٨٦ وطبيعي أن يُعنى القاضي بتربية ابنه، فأخذ يرعاه حتى حفظ القرآن الكريم ورأى أن يتزود من حلقات الشيوخ بدمشق فدفعه إليها وأكب عبد العزيز على تلك الحلقات ينهل منها، حتى إذا أحس أبوه أنه استوعب ما فيها نزل به بغداد فاستمع بها إلى شيخ المدرسة النظامية، وكان لا يزال في نحو العشرين من عمره. وسكن الأب حماة وتولى قضاءها لعهد صاحبها السلطان المنصور الأول (٥٨٧-٦٢٦ هـ) ويظل بها عبد العزيز. وتولى الإمارة السلطان المظفر بن المنصور الأول (٦٢٦-٦٤٢) فابتمت الدنيا له إذ اتخذ المظفر وزيره ومستشاره وشاعره، ويتوفى ويخلفه ابنه السلطان المنصور (٦٤٢-٦٨٣ هـ) وكان صبيا في العاشرة من عمره وربما يكون سكن الشاعر لبلبك ودمشق الذي ذكره مترجموه في هذا التاريخ. وكان يلتمّ بحلب، ونجده سنة ٦٤٧ في صحبة أميرها الناصر يوسف في زيارته لمصر. ويعود إلى حماة وتتعد صلّة وثيقة بينه وبين سلطانها المنصور إلى توفى سنة ٦٦٢ للهجرة.

وكانت تُعقد في هذه البلدان جميعا لعبد العزيز الأنصاري الحلقات لسماع الحديث عنه، وممن سمعه منه الحافظ الدميّاطي محدث مصر واليونيني محدث دمشق، ويقول

(١) انظر في عبد العزيز الأنصاري وشعره فوات الوفيات ٥٩٨/١ وذيّل مرآة الزمان ٢٣٩/٢ والعبير ٢٦٨/٥ وتذكرة الحفاظ ١٤٤٣/٤ وطبقات الشافعية ٢٥٨/٨ و النجوم الزاهرة ٢١٤/٧ والخزانة للحموي ص ٢٤٩ يي ٣١٤ وديوانه (طبع مجمع اللغة العربية بدمشق) بتحقيق د. عمر موسى.

ابن تغري بري عنه: " برع في الفقه والحديث والأدب وأفتى وتقدم عند الملوك وترسل عنهم غير مرة، وكان شاعرا بارعا" وينقل صاحب الفوات عن الفدي في وصف شعره وشاعريته قوله: "لا عرف في شعراء الشام بعد سنة خمسمائة وقبلها من نظم أحسن منه ولا أجزل ولا أفصح ولا أصنع ولا أسرى ولا أكثر، وإن له في لزوم ما لا يلزم ديونا كبيرا، وما رأيت له شعرا إلا وعلقته، لما فيه من النكت والتوريات الفائقة والقوافي المتمنة والتركيب العذب واللفظ الفصيح والمعنى البليغ" وهو يمتاز بجمال موسيقاه وعذوبة ألفاظه وحسن جرسها حسنا بديعا.

وطبيعي والأنصاري شيخ الشيوخ الفقيه المحدث أن يعني في شعره بالمديح النبوي والزهد والوعظ، ومن قوله في أول مدحة نظمها للرسول الكريم وقد أنشدها تجاه حجرته الشريفة:

يا خاتمَ الرُّسُلِ الكرامِ وفارِحِ الـ	كُربِ العِظامِ بفعلهِ والمَقُولِ
ها قد وردنا من ضريحك مورداً	نُشْفِي به من كل داءٍ مُعْضِلِ
أدعوك للجُلَى وتلك شفاعَةٌ	لم تَرْضَ لي أني أخاف وأنت لي
ولقد أتيتك مادحاً لتجيزني	في الحشرِ كاساتِ الرِّحَى السُّسَلِ

وهو يستغيث بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل ومفرج الكرب الذي ورد على جدته الطاهر ومعينه العاطر الذي يشفي من كل داء عضال أن يكون شفيحاً له يوم الحشر وأن يتيح له فيه - حين يشتد بالناس أوار العطش ولهيبه - كاسات من الرحيق الصافي. ويقول في مدحة نبوية ثانية:

ويلاي من نومي المشرّد	وآه من شملي المبدّد
عُصْنُ نَقَا حَلِّ عَقْدِ صَبْرِي	بِلينِ حَصْرِ يَكادِ يُعَقِّدُ
فمن رأى ذلك الوشاح الـ	صائِمَ صَلَّى علِ مُحَمَّدٍ
أشرفُ مَنْ في النهارِ ناجي	وخيرُ مَنْ في الدُّجى تَهَجِّدُ
وغيرُ بَدْعٍ لمستجيرٍ	به إذا نال كلُّ مَقْصِدُ

وموسيقى الأبيات بديعة. وقد تخلص تخلصاً رائعاً من الغزل إلى مديح المصطفى
بذكر وشاح صاحبه الصائم كناية عن نحول خصرها مع لينة، فمن رآها - كما يقول -
صلّى على الرسول إعجاباً بها واستحساناً لها، ومضى يذكر مناجاة الرسول نهائراً
وتهجده ليلاً وأن يستجير به ينال كل مأمور ومطلب. وله مدحة عارض بها مدحة
كعب بن زهير للرسول مقتبساً منها الشطور الثانية لقصيدته، فإن لم يقتبس شطراً
اقتبس قافية.

وزهديات الأنصاري كثيرة، وكان يصدر فيها عن زهد حقيقي في متاع الحياة
الدنيا. وفي إحداها يقول:

مُلْكُ الْقِنَاعَةِ عَزُّ يُذْهِبُ اللَّهَ	فَمَنْ حَوَى كَنْزَهُ لَمْ يُؤْتِ مِنْ قَلِّهِ
تَبّاً لَذِي طَمَعٍ مُسْتَعْبِدٍ وَمُنَى	لَا تَسْتَقِرُّ عَلَى رِيٍّ بِلَا غُلَّةِ
يَسُومُ إِبْلَاعَهُ مِنْ رِيقِهِ بَلَلًا	وَلَيْسَ يَرَوَى وَلَوْ أْبْلَغْتَهُ دِجْلَةَ
فَانْقَعْ غَلِيلُكَ مِنْ نَهْلٍ بِلَا عَلِّ	وَاقْنَعْ إِذَا أَكَلْتَ أَغْنَتْكَ عَنْ أَكْلِهِ

فالقناعة - في رأيه - عز ما بعده عز، ومن حوى كنزها الذي لا يفنى لم يشك من
قلة، ويقول تبّاً لصاحب طمع يستعبده ومنى لا تروى أبداً فدائماً صاحبها يعاني من
غلة العطش وحرارته، ودائماً يريد أن يبلى ريقه، إذ لا يروى أبداً ولو أبلغته نهر دجلة،
فاكتب بأن تنقع حرارة ظمئك من النهل أو الشربة الأولى من الماء ولا تطلب العلل أو
الشربة الثانية منه. وأقنع بكفاف العيش، وطوبى لمن زهد وقنع وأعرض عن متاع الدنيا
الزائل. يقول:

وَإِنِغِ أُخْرَى دَائِمٌ فِيهِ	هِيَ نَعِيمٌ وَشِقَاءُ
وَتَنْصَلُّ مِنْ حَطِيئًا	تِلْهَا النَّارُ جِزَاءُ
وَإِذَا صَحَّ لَكَ الْقَو	تُ عَلَى الدُّنْيَا الْعَفَاءُ
كُلُّ مَا فِي هَذِهِ الدُّنْ	يَا قُصَارَاهُ الْفَنَاءُ
وَلَأَهْلُ الْخُلْدِ فِي الْخُلْدِ	دِ اللَّهِ الْبِقَاءُ

وهو ينصح الإنسان أن يسلو الدنيا ويطلب الأخرى دار النعيم للأتقياء والشقاء للعصاة، وأن يتوب إلى ربه مستغفراً من خطيئاته وذنوبه. ويقول له يكفيك من دنياك القوت الكفاف، وإذا حصلت عليه لا تتعلق من الدنيا بشيء فكل ما فيها هالك وفان، والسعادة إنما هي لأهل الجنة و لله البقاء والدوام.

وفي الديوان أشعار كثيرة على طريقه لزوم ما لا يلزم، ومر بنا أن الصفدي قال إن له فيها ديواناً كبيراً. وقد عرض له الحموي في خزانته طائفة من تورياته وطائفة أخرى من أشعاره وافرة النغم حسنة الجرس والأداء.

محمد^(١) بن سوار

هو محمد بن سوار إسرائيل بن الخضر الشيباني الدمشقي المولد والدار والوفاء، ولد سنة ٦٠٣ للهجرة. وتوفي سنة ٦٧٧ وبدأ بحفظ القرآن الكريم مثل لداته من الناشئة، واختلف إلى حلقات الشيوخ، ويبدو أنه شُغف بالتصوف منذ أوائل حياته، ونظن ظنا أنه لزم ابن عربي المتوفى بدمشق سنة ٦٣٨ غير أن مترجميه يقولون إنه لزم على بن الحسين الحريري المتصوف المتوفى سنة ٦٤٥ ومما يشهد لقولهم مرثيته له، وهو فيها يبكيه بكاء حارا بمثل قوله:

حَظُّبٌ كَمَا شَاءَ الْإِلَهَ جَلِيلُ دُهِلْتُ لَدَيْهِ بِصَائِرٍ وَعَقُولُ

ويعمّ بالخطب كل قطر ويزعم أن الحقائق الصوفية أصبح عليها ذلة وخمول وأن السالكين إلى التصوف غوى نهجهم وضلوا السبيل وسُدل الحجاب الإلهي دون أبصار المتصوفة وحُتمت دنان خمر الحب الرباني. وإذا رجعنا إلى الحريري عند من ترجموا له وجدنا فقهاء دمشق يفتون بقتله - كما أفتى فقهاء حلب بقتل الهروردي - لما اشتهر عنه من الإباحة وقذف الأنبياء والفسق وترك الصلاة، مما يجعلنا نظن ظنا أنه يتأثر السهروردي المقتول. ويبدو أن ملازمة ابن سوار للحريري لم تؤد إلى انحرافات، والسبب في ذلك أنه كان متصوفاً حقاً، إذ يقولون إنه تجرّد ولبس المرقعات الصوفية ورحل في

(١) انظر في محمد بن سوار وشعره وأخباره فوات الوفيات ٤٣١/٢ والنجوم الزاهرة ٢٨٢/٧ وشذرات الذهب ٢٥٩/٥ والوفاء ١٤٣/٣ وراجع ترجمة على بن الحسين الحريري في الفوات ٨٨/٢ وكذلك ترجمة محمد بن عبد المنعم الخيمي في الفوات ٤٥٨/٢.

البلاد على قدم الفقر والتصوف. ولقي - فيمن لقي - شهاب الدين السهروردي الصوفي السني البغدادي وسمع عليه وأجلسه في ثلاث خلوات. ولقي أيضا ابن الفارض متصوف مصر المشهور، ويذكر الرواة لذلك قصة هي أن ابن سوار حجّ، فرأى ورقة مقاه فيها قصيدة - وكانت لابن الخيمي المتصوف المصري تلميذ ابن الفارض - فادعاها لنفسه، فراجعه ابن الخيمي وعبثا حاول أن يقنعه، فتحا كما إلى ابن الفارض فطلب إلى كل منهما أن ينظم قصيدة على نفس الوزن والروي، وكانت القصيدة بائية، فنظم كل منهما على غرارها قصيدة، فحكم ابن الفارض بأن القصيدة لابن الخيمي.

ولم نصل بين ابن سوار والسهروردي البغدادي لأنه كان سني التصوف وتصوف ابن سوار فلسفي ويتصل مباشرة بتصوف ابن عربي وما فيه من فكرة واحدة الوجود، ولذلك وصلناه به، كما يشهد بذلك شعره من مثل قوله:

فإنما مقصدهم أن أراك	أن أمّ صحتي سَمُرًا أو أراك
فإنما عَقْدُ ضميري حِمَاك	وإن تَرَمَّمْتُ بذكر الحِمَى
أحسب إلا أنه قد بكّاك	وإن بكى صَبُّ حبيبًا فما
أعرف قلبا خاليا من هَوَاك	ملأت كلَّ الكون عشقا فم

فصحه أن أموا به شجر السمر والأراك فمقصدهم أن يرى ربه محوبه الذي يحلفى كل كان، وهو حين يذكر في غزله الحمى إنما يريد حماه، بل أن كل من بكى حبيبًا إنما يبكيه لأنه يحل في جميع الأشخاص والأشياء، فما يعشق الناس شخصا أو شيء إلا ويعشونه، وكأن كل شيء مرآة له، إذ يتراءى في كل الوجود. ويقول من قصيدة ثانية:

وإليهم يتوجه المتظلم	يا مَنْ يشير إليهم المتكلم
ويلدُّ لوعاتِ الغرامِ المُغْرَمُ	وعليهم يحلو التأسف والأسرى
وحياتكم ما فيه إلا أنتم	هذا الوجود وإن تعدد ظاهراً
وإذا سألتُ الكائناتِ فعنكم	وإذا نطقتُ ففي صفاتِ جمالكم
وبذكركم في سكري أنتم	وإذا سكرتُ فمن مُدامةِ حبكم
فلأجل حُسْنِكُمْ المحبِّبِ أنظم	وإذا نظمتُ تغزلاً في صورة

أنتم حقيقة كل موجود بَدَا ووجود هذى الكائنات توهُم

والأبيات صيحة في أنه مؤمن بوحدة الوجود. فالله يحل في الوجود جميعه، وكل ما فيه من أشخاص وشيء مظاهر له، وهو لذلك أن تحدث ع جميل أو سأل كائنا من الكائنات إنما يسأل الله ويتحدث عن جماله المشاهد في كل جميل. وهو إذا سكر فسكركه من خمر الحب الإلهي الذي يترنم به ويشدو آناء الليل وأطراف النهار. وهو إذا تغزل في صورة وأستشعر وجداً إنما يستشعر الوجد الرباني. وإنه لينبت في كل موجود وحدة متصلة بين الله ومخلوقاته. وهى نفس الأفكار التي تلقانا عند ابن عربي، ولذلك تكلم فيه أهل السنة، ورموه بأنه يؤمن بالاتحاد بين الله والموجودات. وعلى هذه الشاكلة قوله:

خَلا مِنْهُ طَرْفِي وَأَمْتَلَا مِنْهُ خَاطِرِي فَطَرْفِي لَهُ شَاكٍ وَقَلْبِي شَاكِرٌ
وَلَوْ أَنَّنِي أَنْصَفْتُ لَمْ تَتَّكُ مَقَلَّتِي بَعَادَا وَدَارَاتُ الْوُجُودِ مَظَاهِرُ

فالله يمتزج بروحه ولا يراه، لذلك طرفه يشكو وقلبه يشكر، ويقول إنه كان جديرا بمقتله أن لا تشكو بعاد الحبيب لأن دارات الوجود جميعا من حوله مظاهره، فكيف لا تبصره وهو متحد بكل الكائنات مشاهد في كل الأشياء. وكان للمتصوفة لأيامه ليال يحيونها بالدفوف والذكر إنشاد الشعر عليه إلى السحر، ويُروى أنه حضر مع نجم الدين بن الحكم الحموي ليلة من تلك الليالي فغنى المغنى من شعره:

وَمَا أَنْتَ غَيْرُ لَكُونٍ بَلْ أَنْتَ عَيْنُهُ وَيَفْهَمُ هَذَا السَّرَّ مَنْ هُوَ ذَائِقُ

فقال ابن الحكم: كفر، فقال ابن سوار: لا، ما كفر، لكن أنت ما تفهم، وتشوش المجلس. وفي البيت وفي بقية الشعر ما يدل على ابن سوار يريد أن يقول: على أساس ما يزعمه من فكرة وحدة الوجود- أن الله هو الكون أو الوجود بجميع ما فيه، والفكرة والفكر أساسها- كما يرفضها ابن الحكم- يرفضها- كما ذكرنا ذلك أيضا- أهل السنة وأصحاب التصوف السني.

عفيف^(١) الدين التلمساني

هو سليمان بن علي بن عبد الله الكوفي التلمساني، وتدل نسبته إلى تلمان في الجزائر على أنه مغربي الأصل، كما تدل نسبته إلى الكوفة على أن بعض آبائه نزل الكوفة واستوطنها فيما يبدو، نعرف شيئاً عن نشأته، ويبدو أنه نشأ بدمشق وأنه اختلف إلى حلقات علمائها يأخذ كل ما عندهم، ولعل ذلك ما جعله يؤلف في كل علم كما يقول صاحب الوفيات. وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة، وعُرف فضله وأدبه، ويقول مترجموه إنه خدم بعدة جهات يقصدون عدة مناصب، وأغلب الظن أنها جمعا كانت في دمشق وفي دواوينها وخاصة في بيت المال. وأخذ مبكراً يتصل بالمتصوفة ولزم صدر الدين القونوي أحد أتباع ابن عربي، ويبدو أنه أعتق مذهب في وحدة الوجود على يده. ونزل معه في العقد السادس من القرن السابع خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة، ومكثا بها مدة، رُزق في أثنائها بابنه الشاب الظريف سنة ٦٦٦ وقد تدرت ترجمته بين شعراء الغزل. ولقي في القاهرة مع أستاذه صدر الدين القونوي ابن سبعين الأندلسي، وكان على شاكلة القونوي وابن عربي، ويبدو أنه أعتق مذهب في وحدة الوجود على يده. ونزل معه في العقد السادس من القرن السابع خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة، ومكثا بها مدة، رُزق في أثنائها بابنه الشاب الظريف سنة ٦٦٦ وقد تدرت ترجمته بين شعراء الغزل. ولقي في القاهرة مع أستاذه صدر الدين القونوي ابن سبعين الأندلسي، وكان على شاكلة القونوي وابن عربي يؤمن بوحدة الوجود، فأكدتها في نفس عفيف الدين. وعاد إلى دمشق، وتارة كان يعمل بها في الدواوين، وتارة ثانية كان يفرغ للتصوف داعياً إلى طريقة ابن عربي، ومذهبه في وحدة الوجود على يده. ونزل معه في العقد السادس من القرن السابع خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة، ومكثا بها مدة، رُزق في أثنائها بأنه الشاب الظريف سنة ٦٦٦ وقد مرت ترجمته بين شعراء الغزل. ولقي في القاهرة مع أستاذه صدر الدين القونوي ابن سبعين الأندلسي، وكان على شاكلة القونوي وابن عربي يؤمن بوحدة الوجود، فأكدته في نفس عفيف الدين. وعاد إلى دمشق، وتارة كان يعمل بها في

(١) انظر في عفيف الدين وأشعاره وأخباره فوات الوفيات ٣٦٣/١ وراجع فيه ترجمة ابن الخيمي ٤٦٣/٢ وانظر البداية والنهاية لابن كثير ٣٢٦/١٣ والنجوم الزاهرة ٢٩/٨ والشذرات ٤١٢/٥ وديوان الحقائق ومجموع الرقائق لعبد الغني النابلسي ص ٢٨٩، ٣٢٦. وديوان عفيف الدين طبع قديماً بالقاهرة وبيروت.

الدواوين، وتارة ثانية كان يفرغ للتصوف داعياً إلى طريقة ابن عربي، ومذهبه في وحدة الوجود. وترك دمشق مدة إلى الأناضول، أو كما كانت تسمى حينئذ بلاد الروم، وعمل فيها أربعين خلوة صوفية، يخرج من واحدة ويدخل في أخرى. ويقول مترجموه إنه كان حسن العشرة كريم الأخلاق له حرمة ووجاهة، ولعله لذلك لم يتعقبه الفقهاء، وظل موزعاً بين عمله في دواوين دمشق وعمله في ميدان التصوف حتى توفي سنة ٦٩٠ للهجرة.

وكان تصوف عفيف الدين - كما ذكرنا آنفاً - تصوفاً فلسفياً على طريقة ابن عربي، مما جعله يُعنى بشرح أعقد كتبه في التصوف ونقصد كتابه: "فصوص الحكم" وفي مكتبة ولي الدين بإستانول مخطوطة منه. وأشعاره الصوفية أشعار غزلية حسية على طريقة ابن عربي في ديوانه "ترجمان الأشواق" من مثل قوله في قصيدته التي نظمها على غرار قصيدة ابن الخيمي المذكورة آنفاً في ترجمة ابن سوار:

لولا الحمى وذباً بالحمى عُرِبُ	ما كان في البارق النجدي لي أربُ
وفي رياض بيوت الحي من إضمٍ	وَرَدَ جَنِيٌّ وَمِنْ أَكْمَامِهِ النَّقْبُ
لا تقدر الحُجْبُ أن تُخْفِي محاسنَه	وإنما في سنّاه الحُجْبُ تتَحَبُّ
يا سالما في الهوى مما أكابده	رفقاً بأحشاء صَبَّ شَقَّه الوَصْبُ
هل السلامة إلا أن أموت بهم	وَجُدًا وإلا فبقياى هي العطبُ

وعفيف الدين يستشعر وجد المحبين إزاء محبوبته الرباني، ويتحدث عنه حديثاً رمزياً، فلولا حماه ما كان له أمل وراء البارق النجدي، ولا كان له ولوع بورود الخدود في رياض بيوت الحي من إضم. ويتصور كأن الأقنعة أو الحجب التي تُسدل على تلك الخدود هي أكمام الورود، ويقول أن الحجب لا تستطيع أن تخفي محاسنه إذ تذوب في سنّاه وضيائه المشرق. ويذكر أن أحشاه تستشعر أوجاع حبه وأن سلامته إنما هي في أن يموت في حب ربه ودا وهياماً، وإلا فبقاؤه ملاكته، ويقول أن السكارى يفيقون من سكرهم، وهو لا يفيق مما شرب من دَنّ هذا الحب الإلهي:

لا تحسبوا أنني عن حُبكم سالي	وحقكم لم يزل حالي بكم حالي
با ساكنين فؤادي وهو منزلكم	ل عشتُ يوماً أراه منكم خالي

أنتم بقلبي أدنى من جَوَانحه
حقاً على رغم حُسَّادي وعُدالي
أوضحتم لمحيكم طريقكم
حاشاكم تهجروني عد إيصال

وفى البيت الأول تورية واضحة في كلمة "حالي الثانية" إذ ليس المراد معناه الظاهر كما في "حالي السابقة" وإنما المراد أن حاله لا يزال حبه لربه حالياً أو مزداناً بحلي بديعة. ويقول أن محبوبه الإلهي حال بفؤاده وأنه أدنى لقلبه من جوانحه وما يحيط بها من صدره، وكأنما يشير إشارة إلى فكرة الاتحاد بالذات الإلهية التي كان يؤمن بها ابن عربي. ويتضرع إلى محبوبه الرباني أن لا يهجره بعد وصله ويقول:

يا أصيحابي بذي سلمٍ
مَنْ أُيحابي وما السلمُ
أنا عنى اليوم في شُغلٍ
فاذكروني أن نسيتمُ
وأشيعوا في الحمضى خبرى
وأذيعوا السرَّ واكتتموا
لا يراني الحبُّ مُنْتَبِياً
بعد ما لاحت لي الخيمُ
كنتُ قبل اليوم في حُلْمٍ
وتقضَى ذلك الحُلْمُ
فزمانى كله طربٌ
دونه الأوتار والنَّعمُ

إنه على وشك أن يتحقق أمله في الوصول إلى محبوبه الإلهي. وهو لذلك يخاطب أصحابه بذي سلم أحد المواضع النجدية التي يذكرها أصحاب الغزل العذري. ويرجع إلى نفسه وقد لاحت له خيام محبوبة، كما يقول، فيعلن أنه في شغل عن أصحابه وعن السلم، وأنه لم ينتهي عن طريقة إلى محبوبة الذي طالما حلم بوصله ولقائه، وقد انقضى عهد الحلم. وهو لذلك فرح مبتهج، وزمانه من حوله كله طرباً طرباً يفوق طرب الأوتار والأنغام واللحون. ولما في هذه القطعة وسابقتها من وجد صوفى مندلع حَمَسها عبد الغنى النابلسي مع أبيات متصلة بهما لم ننشدها، وهو وجد كان لا يزال يملأ قلب عفيف الدين غبطة وابتهاجا.

عبد الغنى^(١) النابلسي

هو عبد الغنى بن إسماعيل النابلسي الدمشقي الحنفي، كان أبوه من فقهاء دمشق الأحناف، وكانت له حلقة يجمعها الأموي. ودرس فيها بالمدرسة القيصرية وجامع السلطان سليم، ورحل إلى حلب والقسطنطينية والقاهرة واستقر بدمشق. وولدا فه فيها ابنه عبد الغنى سنة ١٠٥٠ للهجرة، وعنى بتعليمه بعد حفظه للقرآن الريم، قلقنه المذهب الحنفي، ودفعه إلى حلقات العلماء في دمشق يأخذ عنهم العربية والفقهاء والحديث النبوي والتفسير، وأكبَّ على كتب الصوفية يقرأها وسرعان ما نضج علما وهو لا يزال في العشرين من عمره فأخذ يقرأ الدروس ويلقيها على طلابه، مما جعله يكثر من التأليف والتصنيف حتى لتبلغ مصنفاته ٢٢٣ مصنفا، وقد استغرقت في كتاب سلك الدرر للمراذبي سبع صفحات. واستيقظت ملكته الشعرية مبكرة، وأخذ يعني بالتصوف، فانتظم في الطريقة القادرية ثم في الطريقة النقشبندية، وله فيها مخطوطة بدار الكتب المصرية عنوانها: مفتاح المعية في الطريقة النقشبندية، ثم جذبته إليه مذهب ابن عرب الصوفي الفلسفي، وكأنما عاش به وفيه وله، إذ يصدر عنه بوضوح في ديوانه الصوفي. ديوان الحقائق ومجموعة الرقائق، وهو فيه يجاهر بأنه يؤمن بوحدة الوجود التي آمن بها من قلبه إمامه ابن عربي، ويردد دائما: ليس في الكون سواه، فلا موجود إلا به، وما الكائنات إلى صورة له، يتجلى فيها بأسمائه وصفاته، يقول:

إنه الله وجودٌ واحدٌ	حكمةً فينا حرامٌ وحلالٌ
وهو حقٌّ وسواه باطلٌ	قال في القرآن والسبع الطوالٌ
أيما أنتم تولوا ثمَّ وجَّ	هُ الإله الحقُّ محمودُ الفعالُ

وهو يستدل على صحة القول بنظرية وحدة الوجود بقوله تعالى في سورة البقرة: " وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَوْمَهُ دُونَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْسِدُونَ " (١)

(١) انظر في عبد الغنى النابلسي وأشعاره وأخباره كتاب سلك الدرر ٥٣٠/٣ ومفحة الريحانة ١٣٧/٢ وتاريخ الجبرتي ١٥٤/١ وله ديوان الحقائق ومجموع الرقائق في صريح المواجيد الإلهية والتجليات الربانية والفتوحات الأقدسية. طبع قديما بمصر بالمطبعة الاشرفية في ٤٧١ صفحة من القطع المتوسط.

الشرق والغرب يأمرهم الله باتخاذ قلبه تكون هناك جهته التي أمرهم بالاتجاه إليها لا أنه موجود فيها حالٌ بها و متحد معها كما يذب الناسب وان عربي زاعمين أن ذاته هي ذات جميع الكائنات، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. ويقول النابلسي متحدثاً بلسان الذات العلية:

ألا أن ذاتي ذاتُ كلِّ الخلائقِ وسلَّ عنه ذا علمٍ كريمِ الخلائقِ
ولا صفةٌ إلا ومنى تعيَّنتُ لموصوفها إذ كنت أصلَ الدقائقِ
أنا الجوهرُ السَّاري بغيرِ سِرايةٍ ألوحٌ وأخفى في جميعِ الحقائقِ
أنا النورُ نورُ العَيْنِ منى تكوَّنتُ عيونُ البَرايا من مَشوقٍ وشائقِ

فالله جوهر الوجود، يلوح ويخفى ولا سواه، إذ كل ما في الكون مظاهر له، يصبغها بوجوده. ويحاول النابلسي جاهداً أن يفرِّق بين القول بالحلول وأن الله يحلُّ في جميع الموجودات وبين ما يزعمه وهو ابن عربي من وحدة الوجود، وإنها لتبلغ به أن يقول في مخاطبة ربه، "ها أنت أنا وليس في الحضرة ثاني" أو كما يقول:

أثنان نحن وفي الحقيقة واحدٌ لكنْ أنا الأدنى وأنت الأدنى وأنت الأكبرُ

فهو والله واحد بل جميع الكائنات والله - جل جلاله - واحد. وهي نفسها فكرة واحدة الوجود التي يحاول جاهداً الخلاصة منها ولأخلاق فهو غارق فيها. وهو بذلك من أصاب التصوف الفلسفي على طريقة ابن عربي. وله شرح على ديوان ابن الفارض حاول أن يحيله رموزاً خالصة على نحو ما نجد في شرحه الأول بيت في القصيدة البائية بالديوان.

سائق الأثمانِ يطوى البيدَ طيُّ مُنعمًا عرَّجَ على كُتبانِ طيِّ

يقول: "سائق الأظعان هو الله تعالى، والأظعان: الناس وكتبان طي كناية عن المقامات المحمدية التي عدها كرمال الكثيب، فكأنه يلتمس من الله تعالى أن يوصله - كما يوصل جميع المؤمنين - إليها". وابن الفارض لم يقصد إلى شيء من هذا كله، إنما خاطب سائق الأظعان المتجه إلى منازل طي على حافتي نجد والحجاز ليتمهل قليلاً حتى يحيى من يمر بهم في طريقة إلى الحجاز معبراً بذلك عن حنينه إليه. وطبيعي

وهو قد قرأ ابن الفارض وابن عربي وتمثل كثيرا من اشعر المتصوفة مخمسا لها ومشطرا كما يتضح في ديوانه الصفوي أن نراه تارة يتغزل في بثينة وعلوة وسلمي وزينب وسعاد، وهى كلها رموز للذات الرانية، وتارة ثانية يصف الخمر ونساقياها وكأسها وشرابها وحبابها وما تحدث في روحه من نشوة وفى عقله من شطح. ونراه يهاجم علم الكلام والمتكلمين إذ يدعون إلى ضرورة العلم بالله عن طريق النظر العقلي الفلسفي لا كما يؤمن المتصوفة بأن هذا العلم إنما يستمد من القلب، وشتان بين علم العقل والفلسفة وعلم المحبة القلبية. وله قصيدة بديعة في الاستغفار من ذنوبه وخطاياها امتدت إلى ٩٢ بيتا تلاها بالصلاة على الرسول الكريم وآله وأصحابه والتابعين وقصيدة ثانية توسل فيها بأسماء الله الحسنى أن يدفع عنه كل شر ويسبغ فيه كل خير، وختمها أيضا بالصلاة على رسول الله وآله وأصحابه، وله في الرسول غير قصيدة نوبية وغير موشح وقد افتتح موشحا له بقوله:

نور طة المصطفى منه جميع الكائناتِ وبه كان الترقى في جميع الدَّرجاتِ

ونحسُ في الموشح إيمانه بفكرة الحقيقة المحمدية السارية في الكون بأسره التي تحفظ عليه كيانه وتصوف وجوده، فكل وجود مستعار من وجوده وكل نور مستمد من نوره. وفي الديوان موشحات وديوبيتات أو رباعيات كثيرة، وتكثر مثلها الموالي العامية، وفي الديوان أيضا منظومة صوفية من وزن "كان وكان" العامي.

شعراء شعبيون

لا نقصد بشعبية الشعراء في الشام أنهم نشأوا في بيئاتها الشعبية من سلاسل عامتها، فداما جمهور الشعراء في كل بلد عربي انحدروا من أسر شعبية ولم ينحدروا من أسر أرسقراطية، وإذا استثنينا أبا فراس بعض أفراد أسرته الحمدانية ممن أنشد أشعارهم الثعالبية وأيضا بهرام شاه الأيوبي صاحب بعلبك المتوفى سنة ٦٢٨ لهجرة ونفراً من أفراد أسرته ممن ترجم لهم العماد في خريدته بقسم الشام ومن جاء بعدهم مثل الملك الأشرف صاحب "حصن كيفا" حفيد الملك العادل أخي صلاح الدين المتوفى سنة ٦٣٦ إذا استثنينا هؤلاء الأمراء وهم قلة بجانب الكثرة الغامرة من الشعراء وجدنا من عداهم من أبناء الشعب. وكان بنبيهم غير شاعر يحترف عملاً يكفل له عيشه، مل يحيي الخباز الحموي الذي أنشد له صاحب الخزانة طرائف كثيرة من تورياته، وبالمثل صنع مع شمس الدين محمد بن إبراهيم المتوفى سنة ٨١١ واشتهر باسم صنته. شمس الدين المزين: لا نريد إذن بشعبية الشعراء التالين نشأتهم في أوساطهم شعبية، وإنما نريد أنهم أخذوا لغة الشعب العامية لسانا لهم في أشعارهم.

وكانت أخذت تشيع في الشعر لهذا العصر فنون شعرية عامية هي: الزجل والمواليا، والقوما والكان وكان، ومعروف أن الزجل نشأ في الأندلس أولاً عند ابن قزمان وصحه في القرن الخامس ثم شاعر في البلاد العربية. أما المواليا والقوما والكان وكان فنشأت أولاً بالعراق ثم أخذت تشيع في البلاد العربية منذ القرن السابع. وربما كان الزجل نشأ في الأندلس أولاً عند ابن قزمان وصحبه في القرن الخام ثم شاعر في البلد العربية. أما المواليا والقوما والكان وكان فنشأت أولاً بالعراق ثم أخذت تشيع في البلاد العربية منذ القرن السابع. وربما كان الزجل أكثر شيوعاً في الشام يدل على ذلك أكبر الدلالة أننا نجد صفى الدين الحلبي المتوفى سنة ٧٥٠ للهجرة في كتابه: "العاطل الحالي" يتووه بشيوع الزجل لزمه هناك، ويقول إنه لقي من أعلامه بدمشق شاب الدين أحمد الأمشاطي إمام هذا الفن الشعبي بها كما لقي بحب رواة ثقة من أكبر رواته هو ابن الضرير الشيخ الصالح إمام الفردوس، وكان قد جلب لنفسه نسخة وثيقة مقابلة

على الأصل من ديواني الزجالين الأندلسيين الكبيرين: ابن قزمان ومدغليس حُملت إليه من المدرسة الأشرفية بدمشق. ويذكر صفى الدين أنه كان قد حصل على الديوانين في زيارته لمصر (٧٢٣-٧٢٦هـ) غير أنهما كانا بخط مغربي تعسر قراءة بعضه، فصحح الديوانين بمقابلة نسخة ابن الضرير ومراجعته، وأجاز له بخطة ما نقله عن نسخته، وعرفه بمشايع الزجل في حلب. ومن أعلامه البارعين حينئذ بحماسة علاء الدين بن مقاتل، وسنترجم له عما قليل. ولعلنا لا نعجب بعد أن رأينا إقبال أهل الشام على قراءة ابن قزمان ورواية أزجاله أن تكون هي القطر الوحيد الذي احتفظ إلى عصرنا بمخطوطة أزجال ابن قزمان ورواية أزجاله أن تكون هي القطر الوحيد الذي احتفظ إلى عصرنا بمخطوطة أزجال ابن قزمان الوحيد التي عثر عليها جنز برج سنة ١٨٩٦ ونشرها بطريقة الزنكغراف. ولعل من الطريق أن نعرف أن.. فقيها محدثا كبيرا هو شمس الدين بن الصائغ المتوفى سنة ٧٧٦ للهجرة ألف شرحا على بردة البوصيري باسم رقم البردة، استشهد فيه بشعر أهل زمنه فيما عرض له من أنواع البديع وأيضاً استشهد بطائفة من محاسن أزجالهم (١)، وفي دار الكتب المصرية مخطوطة من هذا الشرح. وهو اعتراف قوى بالزجل وصلاحيته ليكون مائة لتعليم البلاغة والتطبيق على محسناتها المختلفة.

وكانت المواليا شائعة أيضاً. وإن لم يقصر بعض الشعراء نفسه على النظم فيها، وكأنما كان الشعراء يضيفونها إلى شعرهم الفصيح استطرافاً، وقلما تُصارع صياغ صياغة فصيحة، إذ تَطَّرِد فيها العامة، ومما يلقانا من طرائفها قول جويان بن مسعود الدمشقي المتوفى في حدود سنة ٦٨٠ للهجرة (٢):

أفارقُه وأول إنِّي قد أتسلَّيتُ
وريحَتِ قلبي وزالِ الهم وأتخلَّيتُ

وأذكر مساويه في حقي إذا وليتُ
وإذا رجعت نسيبت الكَلَّ وأتخلَّيتُ

والتورية واضحة في كلمة "وأتخلَّيتُ" المررة قافيةً للبيتين، والأولى من التخلّي بمعنى أنه أصبح خالياً من الهم والغم، والثانية كلمة عامية من الخل، تقول العمّة

(١) انظر خزنة الأدب للحموى ص ٦، ١٧٦.

(٢) فوات الوفيات ٢١٨/١.

أصابه خل واختل عقله. ويريد أنه إذا لقي صاحبتة أصابه ذهول، فنسى كل ما كان فيه من فكر فيها وسلوى عنها ويُعد عن الهم.

ونلتقي بمعاصره عز الدين بن السويدي المتوفى سنة ٩٠ وهو من سلالة سعد بن معاذ الأوسى سيد قوه الصحابي الجليل. وكان شيخ الأطباء بدمشق، وكان - كما يقول بعض من ترجموا له - من أسرع الناس بديهة في قول الشعر وأحسنهم إنشادا، وله مواليا (١):

البدر والسعد ذا شِبْهك ذا نَجْمك والقَدَّ واللَّحْظَ ذا رمحك وذا سَهْمك
والبغض والحب ذا قِسْمى وذا قِسْمك والمسك والحسن ذا خالِكْ وذا عَمَكْ

فصاحبتة تشبه البدر وجمها أو حظها السعد، وقدها مستو ممشوق مثل الرمح ولحظها فاتك قتل مثل السهم، والبغض قسمها وتصيبها والحب قسمه ونبيه، والمسك خال الحسن على وجنتيها والحسن يعم كل أعضائها وفي كلمة "عمك" تورية واضحة. وله مواليا أخرى فكهة:

أذى قايله لاختها والقصد تُسمعنا ما النحو؟ قالت لها: نَحْنَا بأجمعنا
الرفع والنصب نا وأنتي ومن معنا للجر، والزوج حرف جاء للمعنى

والدعاية للنحو والنحاة واضحة، وكلمة نحنا هي نحن بالفصحى. ونظّم اصحا المواليا في جميع أغراض الشعر من غزل ومديح وهجاء وخمر وطبيعة، واستغلها المتصوفة فنظموا مواليات كثيرة. ونلتقى في ديوان عبد الغنى النابلسى بنحو ثمانين مواليا نكتفى منها بقوله (٢):

الباطن السابق الظاهر هو المسبوق والكل واحد فكن أعلى من العَيُّوق
وأخرج عن الكل أنت الكل يا معتوق أما الجميع هو الخالق أو المخلوق

فليس في الكون إلا وجود واحد هو وجود الله المتمثل في جميع مخلوقاته، أو بعبارة أخرى هي وحدة وجود تغمر الكون كله.

(١) راجع في هذه المواليا وتاليتها المنهل الصافي لابن تغرى بردى ١/١٢٧.

(٢) ديوان الحقائق للنابلسى ص ٢٦٨.

ومعروف أن القوما اخترعها المغنون والمنشدون ببغداد لإيقاظ الناس كي يتناولوا سحورهم استعداد للصوم، وكانوا يختتمون كل بيتين منها أو دور بكلمة "قوما للسحور" ومن هنا أخذت أسماها وشاعت في البلدان العربية. أما الكان وكان فقد اخترع البغداديون وزنه لتنظيم الحكايات والخرافات وأحداث التاريخ، ثم اتسعوا به فنظموا فيه المواعظ والزهديات والحكم كما مر بنا في قسم مصر. ولابن الوردي المتوفى سنة ٧٤٩ منظومة^(١) منه صور فيها أحداث وباء الطاعون الذي أمتحنت به الشام ومصر سنة وفاته. وفي ديوان عبد الغنى النابلسي منظومة صوفية منه في عشرين^(٢) بيتا تصور عقيدته في وحدة الوجود. وحري بنا أن نتحدث بكلمة مجملية عن أبي العلاء بن مقاتل الزجال.

أبو^(٣) العلاء بن مقاتل

هو علي بن مقاتل الحموي ولد سنة ٦٧٤ بحماة، ويقول ابن حجر إنه "تعانى الأدب فتعلم الشعر قليلا وغلب عليه نظم الأرزجال فاشتهر بها، وأزجاله في ديوان مفرد في مجلدين.. وكان هذا الفن قد انتهى إليه في زمنه.. كانت وفاته في أوائل سنة ٧٦١" ويذكر ابن حجر أن له زجلا مشورا في الملك المؤيد صاح حماة (٧١٠ - ٧٣٢) أنشده إياه وعنده ابن نباته والصفى الحلي. وكان الفي قد نزل حماة ومدح المؤيد وأنه أفاضل في أواخر العقد الثاني وأوائل الثالث من القرن الثامن. وشيد به ابن حجة الحموي في خزانته قائلاً: "وكان الشيخ علاء الدين بن مقاتل إذا ذكر الزجل كان ابن بجدته وأبا عذرتة، ومن سلمت إليه مقاليد هذا الفن.. وأورد الشيخ صلاح الدين الصفدي نبذة من غرر أزجاله في تذكرته وتاريخه تغنى عن الإكثار في ترجمته". وينشد الحموي زجله المشهور آنف الذكر وهو يستهله على هذا النمط:

قلبي يحب نبيّاه ليس يعشق إلا إياه

فأز من وقف وحيّاه يرصد على محيّاه

بدر السّما لو يطبع

من رام وصالو يعطّب

(١) تنمة المختصر في أخبار البشر لابن الوردي ٣٠٢/٢.

(٢) ديوان الحقائق للنابلسي ص ٣٥٦.

(٣) انظر في أبي العلاء بن مقاتل وأزجاله خزانة الأدب للحموي ص ٤٧، ٥٠، ١٧٦ والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامن لابن حجر ٢٠٨/٣ وأنشد النواجي له في كتابه عقود اللال ستة أرجال (انظر الفهرس).

ليث الهوى ونمرو فاعجب لصغر عمرو	صغير يحير في امره غزال قهر بسمرؤ
أردى الأسود وأرعب	ريم ابن عشر وأربع
وحيب ما فيه طمعتو فقال وقد سمعتو	أذكر نهار تبعو وروحي كنت بعت
أخشى عليك لتتعب	أرجع ولالي تتبع
ورمت أنم كفو قال دغ مناك وكفو	كم قدموا وخلصوا مشيت مطيع لخلصوا
من الثريا أصعب	فإن لثم إصبع

وبمجرد أن نسمح هذا الصوت نعرف أن صاحبه زجال مبدع لقدرته على اختيار الألفاظ بحيث يعانق بعضها بعضاً منذ الدور الأول "فتيها" تجذب إياه و"حيها" تجذب محياه، وبالمثل "يطبع" في القفل تجذب يعطب. وكأننا في مرقص للألفاظ وبذلك يتسق النغم في الزجل اتساقاً بديعاً، وكأنه عطر للأذان تستروحه مع روعة التصاوير وخفتها ورشاققتها، فصاحبته بدر في السماء لاتصل إليه الأيدي، وهي غزال تهر بعينيهما الكحلتيين أو السمراوين.. مع صغرها الليوث والنمور. وتهلكها وترعبها رعباً. ونصحته أن لا يتبعها، فأمله فيها سراب كاذب. ويحاول لم كفها أو أنملا من أناملها فتقول له الثريا وأخواتها من نجوم السماء أقرب لك. وهي صنعة زجية رائعة منتهى الروعة. وقد تلاعب بالجناس المقلوب في الأفعال تلاعباً يدل على مبلغ مهارته، فيطبع تقابلها يعطب، وأربع تقابلها أعب، وتتبع تقابلها تتعب وإصبع تقابلها اصعب. وبذلك كله يتحول الزجل باللغة اليومية العادية التي لا تحتوى فناً إلى لغة زجلية شجية النغم كأنها تغريد عندليب مع ما يحمل العندليب أنغامه من تلاوين الصور والأخيلة، وبحق يقول صاحب الخزنة عن هذا الزجل: "سارت به الركبان". وأنشد له صاحب الخزنة زجلين آخرين بديعين.